8me Année No. 355

Lundi - 22 - 4 - 1940

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٣٥٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ ربيع أول سنة ١٣٥٩ — الموافق ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٠ » السنة الثامنة

في سبيل الأزهر الجديد

من بشائر الأمل فى النهوض ودلائل الثقة بالفوز أن النفوس الشابة مهيأة لدعوة التجديد ورسالة الإصلاح ؛ فهى كالأرض الطيبة تشتمل على مذخور الحياة وموفور البذر ثم لا تنتظر غير الفلاح والغيث.

منذ أخذنا على بعض العلماء اشتغالهم بالمراء الباطل والبحث العقيم ، ووقوفهم عند المماحكة فى اللفظ والمماياة بالاعتراض ، وتركهم أصول الدين تشتجن عليها الأضاليل والبدع ، والرسائل تنثال علينا من شباب المراغى فى أقسام الأزهر وكلياته يشايعوننا على الرأى ويسألوننا أن نزيد .

و(شباب المراغى) تعبير لم نضعه، وإنما وجدناه فى جميع الرسائل التى أُلقيت إلينا ؛ فهو إما إلهام جاء من اتحاد النية، وإما اتفاق أُبرم على إرادة الإصلاح .

* * *

نعتقد مخلصين أن الأزهر إذا استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة ، تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل فى أصوله . ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحى وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هى وهو فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد

الفهـــرس

صفحة		
٦٨١	فى سبيل الأزهر الجديد ...	أحمد حسن الزيات ... ...
٦٨٣	فى أرجاء سيناء	الدكتور عبد الوهاب عزام
٦٨٥	أساليبنا فى البحث وعلام تعتمد ؟	الدكتور محمد البهى ... ...
٦٨٧	مزامير للنفس العربية ! ...	الأستاذ عبد المنعم خلاف ...
٦٩٠	نشأة اللغة الانسانية ...	الدكتور على عبد الواحد وافى
٦٩٣	الأمومة عند العرب ...	الأستاذ رفعة الحنبلى ...
٦٩٦	النقابات الاسلامية	الأستاذ برنارد لويس . ... ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدروى
٦٩٩	يوت الشعراء [قصيدة]	الأستاذ محمود غنيم ... ...
٦٩٩	المنبوذ ... ... »	الأديب فؤاد بليبل ...
٧٠٠	نشيد العمل ... »	الأستاذ على الجندي ... ...
٧٠٠	إياك أعنى ... »	الأستاذ محمد كامل حتة ...
٧٠١	« الأدب فى أسبوع » : مولده ـ أعيادنا ـ التعليم ـ تعليم العربية ـ مشروع ...	الأستاذ محمود محمد شاكر
٧٠٤	العشرة الطيبة	الأستاذ عزيز أحمد فهمى ...
٧٠٧	الكتابة على الأرض [قصة]	للكاتبة الأسوجية سلمى لاجيرلوف بقلم الأستاذ صديق شيبوب
٧١٠	الدين ... ... »	للكاتب الفرنسى « موباسان » بقلم الأستاذ مراد الكردانى
٧١٣	أطفال ولا طفولة	عن : « نيوزبورخ زوتنج »
	نابليون في منزله	عن : « ذى ويك » ...
٧١٥	هذا أديب	الدكتور زكى مبارك ... ...
٧١٦	حول الأمومة عند العرب	الأستاذ محمد صبرى عابدين
٧١٧	العقيدة الساذجة	الأستاذ محمود محمد سويلم ...
	مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى رأى لجنة المالية بمجلس النواب ...	
	الفؤاديات — الشيخ عبد الرحمن قراعة كأديب	
٧١٨	ليالى الملاح التائه [نقد]	بقلم الأديب عبد العليم عيسى

دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره .

كذلك نعتقد مخلصين أن رجعة الأزهر إلى ماضيه البعيد خير له وللناس من جموده على شأنه الحاضر . والرجعية لا يمكن أن تكون فى منطق الطبع سبيلاً إلى التقدم ، ولكنها فى نظام التعليم الأزهرى خرق لهذا القانون لا ينكره العقل . ذلك لأن رجعية الأزهر معناها العودة فى استنباط الدين إلى منابعه الأولى من صريح الكتاب وصحيح السنة ، وفى فقه الأحكام إلى مثل كتابى الأم والرسالة للشافعى ، وفى تعليم النحو إلى كتاب سيبويه وخصائص ابن جنى ، وفى تدريس البلاغة إلى كتب عبد القاهر وأبى هلال . وفائدة هذه الرجعية الخلوص من أمثال الجمع والهمع ، وما حشد الأعاجم فى عصور الشروح والحواشى والتقارير مما أفسد الملكات وأفند(1) العقول وصرف الأذهان عن جوهر الدين ولب العربية وسر البلاغة

***

إن الدين الإسلامى ينفرد عن سائر الأديان باعتماد دعوته على الأدب وقيام معجزته على البلاغة . فإذا حثر(2) ذوق العربية فى رجاله بما قش(3) السكاكى والقزوينى وملا جلبى من الغثاء والهراء ، تقطعت الأسباب بينهم وبين محمد فضلوا سبيله وجهلوا علمه . فالدين الإسلامى والأدب العربى متلازمان تلازم المعنى واللفظ أو الفكر والأداء . ولا يتسنى لرجل الهداية والإصلاح أن يبلغ دعوة محمد إلا إذا تمكن منهما تمكن الجاحظ والزمخشرى ومحمد عبده ورشيد رضا والمراغى . أما المضمضة بالألفاظ الاصطلاحية والجمجمة بالجمل المعقدة على أنها هى العلم والأدب ، فتطور إلى العكس لا يجوز أن ينتج إلا ما نحن فيه

***

من الطبيعى أن ينشئ هذا الكلام فى ذهنك هذا السؤال فتلقيه علىّ : إذا كان المراغى أجدر الناس بإصلاح الأزهر كما نعتقد ؛ وكان شباب الأزهر راغبين فى هذا الإصلاح مؤمنين بقدرة شيخهم عليه كما نرى ؛ فما الذى يعوق هذا الإصلاح ويعارض هذه الرغبة ؟ ... والجواب المفصل عن هذا السؤال يقتضى شيئاً من الصراحة لا تحتمله بعض النفوس فيما أظن . فإذا وقفنا عند الأسباب الظاهرة المباشرة قلنا إن إصلاح الأزهر لا يمكن أن يتم فى سنتين أو فى أربع ، لأن ملاك هذا الإصلاح منوط بأمرين اثنين : أحدهما إعداد المعلم ، والآخر تأليف الكتاب

فأما إعداد المعلم فيقوم على أن يكون متمكناً فى علوم الدين وصاحب ملكة فى الفقه ، وأن يكون متبحراً فى فنون العربية وصاحب قريحة فى الأدب ، وأن يأخذ بعد هذا وهذا من ثقافة الغرب بأوفى نصيب . وهذا الإعداد على هذه الأساس لا يؤتى ثمره قبل عشر سنين إذا أخذوا منذ اليوم ينتخلون ممن تخرجهم أقسام التخصص المختلفة فى كل سنة نوابغ الفقهاء الأدباء ، ثم يبعثون بهم إلى جامعات انجلترا وفرنسا وألمانيا ليبلغ كل منهم أقصى الدرجات فى العلم الذى أخصى فيه . ولك فى الأساتذة البهى وماضى ومحمد يوسف موسى شاهد صادق على فضل هذا الإعداد وأثره

وأما تأليف الكتاب فلا يتيسر إلا بعد إعداد العلم ، لأنه هو وحده الذى يدرى كيف يؤلفه ويدرسه . ومتى توفر للأزهر العلم والكتاب فى ظل هذه الإدارة البصيرة صح لك أن تقول : « إن مصر ظفرت بجامعتها الصحيحة التى تدخل المدنية الغربية فى الإسلام ، وتجلو الحضارة الشرقية للغرب ، وتصفى الدين والأدب من شوائب البدع والشبه والركاكة والعجمة »

***

ذلك فيما نعتقد ما كان يمنيه صاحب الجلالة المغفور له الملك « فؤاد » حين قال لأحد كبار العلماء : « إن أنجع الوسائل فى إصلاح الأزهر أن يغلق عشر سنين ثم يفتح من جديد »

وذلك فيما نعتقد أول الإصلاح الأزهرى وآخره . وما دام التعليم الدينى قائماً على براعة المعلم فى حل المعميات وخلق الاعتراضات ، وإمعان الكتاب فى الاستطراد والاستغلاق والحشد ، فهيهات أن يتجدد الأزهر وإن شيد بالمرمر وفرش بالطنافس وأنير بالكهرباء !

احمد حسن الزيات

(1) أفند العقول : أضعفها

(2) من قولهم : حثر اللسان إذا لم يجد طعم الطعام

(3) قش الشيء : جمعه من ههنا وههنا

٤ – في أرجاء سيناء

للدكتور عبد الوهاب عزام

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر ذي الحجة خرجنا إلى حديقة الدير فدخلنا إلى ساحة ذات أشجار اتخذت مباءة لغنم الدير، رأينا فيها عدة من الضأن والمعز معها سخالها، ورأينا في جانب الحديقة ناقة معها فصيلها، وهي لجمل ما يجلب إلى الدير. وهناك بئر واسعة قريبة الماء

ثم دخلنا إلى ساحة صغيرة فيها قبور قليلة هي مزرعة الموتى؛ فأما حصاد هذه المزرعة ففي حجرة واسعة متصلة بهذه المقبرة. في هذه الحجرة أكداس من الجماجم والعظام قد رتبت وصنفت، فالجماجم على حدة، وعظام الأذرع على حدة، وعظام الأرجل على حدة، لم تختلط كما توجس أبو العلاء في قوله:

لا يغيِّركم الصعيد وكونوا … فيه مثل السيوف في الأغماد
فعزيز عليَّ خلط الليالي … رمَّ أقدامكم برمِّ الهوادي

ذلك أن موتى الدير يدفنون في المقبرة الصغيرة ثم تستخرج العظام بعد حين فتجمع في مكانها وتخلى الأرض لمن يفد إليها من وفود الموتى المتتابعة على مرّ العصور

ربَّ لحد قد صار لحداً مراراً … ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين … في قديم الأزمان والآباد

ثم خرجنا من دار الفناء والعبر فدخلنا إلى حديقة واسعة فيها أنواع من البقول وضروب من السرو وأشجار الفاكهة، تسقى من آبار فيها، ومما يجلب إليها من آبار داخل الدير

وحديقة الدير مرأى جميل في حضيض الجبال الشاهقة المشرفة عليها

الى جبل موسى

الجبل العظيم المطل على الدير من الجنوب يسمى جبل موسى ويقال: إنه الجبل الذي تلقى فيه موسى عليه السلام الألواح.

تواعدنا الخروج إلى الجبل بعد الظهر، فسار الرفاق يدلهم أحد الرهبان، فخرجوا من باب صغير في حديقة الدير إلى الجبل ليصعدوا زهاء ثلاثة آلاف درجة منحوتة في الحجر أو مرصوفة، وللجبل طريق أخرى على مقربة من الدير تصعد على السفح متعرجة إلى ثلثي الجبل، ويستطيع الجمل أن يصعد فيها. وقد آثرت أنا هذه الطريق، فركبت جملاً، وسار صاحبه يقوده. فأما الجمل فاسمه درويش، وأما صاحبه فاسمه حميد من أولاد سعيد

صعدنا زهاء خمسين دقيقة، وأنا مشفق على هذا الحيوان السهلي يكلَّف هذا المرتقى الصعب، بل سفينة الصحراء التي تسام صعود الجبال.

وكان بيني وبين صاحب درويش حديث ممتع:

قلت: ما تسمي هذا الذي أركب عليه؟ قال: الغبيط، والذي تحته البدار، وقد وضعت الغبيط على بدار الجمل، لأني جئت بدرويش إلى الدير محملاً، وما حسبت أنه يركب. قلت: الغبيط بلغة أهل مصر ما يحمل فيه التراب ونحوه على الدابة، ولكنه في الشعر القديم كما تقول. قال: هذا الخشب المكسوّ الذي يركب عليه هو الغبيط، والبدار هذه الحشيّة التي توضع تحت الغبيط. قلت: فما تسمى هذا الحزام الذي على صدر الجمل؟ قال: هو البطان. قلت: صدقت. ويقال في المثل التقت حلقتا البطان. والحقب؟ فما الحقب؟ وهل تسمى الحزام الخلفي حقباً؟ قال: لا، هو الحبك. قلت في نفسي: ليس هذا بعيداً من قياس اللغة وسماعها. ثم قلت: فما الحبل الذي في يدك؟ قال: الرسن. قلت: ألا تسميه المِقود؟ قال: المقود هذه — وأشار إلى طرف الحبل الذي في يده وقد جعله كالحلقة — قلت: يا حميد! فما الحبل الذي على خدّ الجمل. قال: المذار. قلت: صدقت. وتذكرت قول أبي الطيب:

فقرّحت المقاود ذفريها … وصعّر خدّها هذا المذار

قلت: فأين الغارب؟ فوضع يده على ما أمام الغبيط من ظهر الجمل، وقال: والكتِب هذا؛ ووضع يده على ما يلي العنق. قلت في نفسي: الذي عرفناه في اللغة الكاثب وجمعه كواثب، كما قال النابغة:

لهن عليهم عادة قد عرفنها … إذا عرّض الخطيّ فوق الكواثب

قلت: فأين الثفنة؟ قال: لا أعرف. قلت: ألا تسمى الركبة ثفنة؟ قال: لا، ولكن الذّفنة هذه. وأشار إلى ما يقع على

الأرض من رجل البعير الخلفية إذا برك . فقلت فى نفسى : قد قُلبت الثاء ذالاً فى لغة حميد وقومه

ثم سألته عن نبات صَرَّنا به حتى قلت : أهذا ثُمام ؟ قال : لا ، ولكن فى وادى كذا ثمام كثير . قلت : نحن نقرأ فى كلام القدماء : « هذا الشىء على أطراف الثمام » . قال : نعم ، كذلك نقول إذا كان الشىء كثيراً قريباً ، لأن الثمام قصير . قلت : أفادك الله يا حميد

قال حميد : لا يصعد الجمل بعد هذا الموضع . فنزلت وربط هو درويشاً ؛ وسار معى يدلّنى الطريق إلى حيث يصعد المتوقل إلى القمّة . فمشينا زهاء خمس دقائق ، فنادى : هؤلاء أصحابك . فرأيت جماعة من الرفاق قعدوا من الإعياء ، فمرّفونى أن جماعة خلفهم وآخرين سبقوهم إلى القمّة . شرعت أصعد فى درج متمهّلاً أقرأ بين الحين والحين على الصخر ما كتبه أحد الرفاق السابقين من كلمات تواسى الصاعد وتحرّضه على المثابرة ، وبعد نصف ساعة بلغت القمة

على القمة فجوة بين الصخور قال دليلنا الراهب : إنها حيث رأى موسى الملك . وهناك كنيسة صغيرة جميلة على جدرانها صور متقنة تمثل ما يدور حول هذا المكان من ذكريات منها صورة تمثل موسى يتلقى الشريعة من الله تعالى

وفى جانب من القمة مسجد ساذج جدرانه غير مطلية وسقفه غير محكم وأرضه غير مفروشة . قالت نفسى : هذه أمارة على إهمال المسلمين أمورهم ، فخطر لى أنه مع هذا أمارة على يسر الإسلام وقربه إلى الفطرة . وبجانب المسجد عند حافة القمة غار صغير يُهبَط إليه درجات قليلة فيه أثر نار . يقول العامة : إنه حيث أقام موسى أيام الموعد ، وإن هذه النار من آثار ذلك الزمان

وتشرف هذه القمة العالية على جبال وأودية كثيرة ، ومناظر بعيدة وقريبة ، وتسمو بجسم الإنسان وروحه حتى يكاد يتوهم أنه من طير الجو أو سكان السماء

أقمنا قليلاً ثم شرعنا نهبط وأمامنا الراهب لم يعىَ بالصعود والهبوط على كبر سنه (وكل امرئ جار على ما تعوّدا)

ما زلنا نهبط ثم نهبط ؛ كلما رأينا وادياً فى الجبل قلنا قاربنا الأرض ، فإذا بلغناه وجدناه قمة عالية تشرف على مهاوٍ أخرى بعيدة . وتشرف المخارم فوقنا عالية عاتية مهيبة ملساء صمّاء ، ونشرف نحن على هُوىً سحيقة وأودية بعيدة ، دواليك حتى غربت الشمس وطلع القمر متمهلاً فوق الجبل الشرقى كأنما أصابه من الإعياء ما أصابنا . ثم أشرفنا على الدير وقد بلغ منا التعب مبلغه فتحاملنا حتى هبطنا إلى مستوى الدير بعد ساعة ونصف من مفارقة القمة .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

على هامش الأبحاث النفسية والفلسفية

أساليبنا في البحث

وعلام تعتمد ؟

للدكتور محمد البهي

كتبت مرة في مجلة أزهرية كلمة حول تطور فكرة « الشر » في القصص الميثولوجية Mythology والأبحاث الفلسفية ، وكيف دخل كثير مما قيل فيها من آراء في شرح ما جاء في الديانات السماوية السامية من التعبير « بالشيطان » على لسان المفسرين العقليين Rationalisten

فكتب « باحث » آخر يلاحظ أن كلمتي اشتملت على « غموض وإبهام » ، وأني قد « أطلت من غير داع » ، وأن « كل اعتمادي على الفكر الخيالية » ، ولم تكن « لمقدمتي الطويلة كبير فائدة تذكر للمسلمين وغيرهم » . وليتني « إذ تعرضت للفلسفة أتيت منها بما يستند إلى البرهان العقلي أو التجربة والمشاهدة كما هو أساس الفلسفة الحديثة التي انتهت إلى إثبات الأرواح المجردة علوية وسفلية . ولكني لم أفعل ، بل أتيت بما هو منقوض بنفس الفلسفة الحديثة التي انتهى إليها تفكير الفلاسفة المصريين في أبحاثهم »

وهكذا كان « بحثه » مملوءاً بمثل هذه الأحكام والملاحظات . وقد ختمه بأن وعدني « بالمناقشة باعتبار أني مسلم »

مثل هذا الكاتب ليس بالقليل ، وطريقته في البحث غير مجهولة . وهو فقط مثل جزئي لظاهرة تطبع تفكير الكثير من « باحثينا » وكتابنا

لهذا لا أقصد من كلمتي هذه سوى شرح تلك الظاهرة وتعليلها من ناحية البحث التاريخي الفلسفي ، وإرجاعها لحالة معينة من الحالات العقلية التطورية للجماعة من وجهة البحث البسيكولوجي

كثيراً ما نقرأ « للباحثين » أمثال هذه العبارات : ما أقوله (أنا) حق ، أو هو الحق الصراح ، أو واضح وضوح الشمس في رائعة النهار . وما تقوله أنت (للخصم) باطل ، أو غامض مبهم ، أو لا يستند إلى الواقع ولا إلى العقل والمنطق ؛ والحس ينكره والتجارب لا تؤيده ... ... الخ

هل وضع مثل هذا الكاتب مقياساً علمياً مجرداً عن التأثر الشخصي لمعرفة الحق والباطل ؟ هل اتخذ فاصلاً من الأساليب اللغوية لتبين النص والصراحة والوضوح من اللبس والاحتمال والإبهام ؟ هل أراد من الواقع الواقعَ الذي له اعتبار عام ، أم ذلك الذي يدركه هو من أفق وحيط ؟ هل أراد بالعقل العقلَ الإنساني ، بغض النظر عما لكل فرد من ثقافة وعادات وعن الفروق الفردية والبيئية ، أم أراد به الشائع المعروف كالذي يحكيه الفارابي عن المتكلمين في زمانه من أنهم كانوا يقولون : هذا يقبله العقل ، هذا لا يسلم به العقل ، ويقصدون بالعقل الشائع المتعارف بينهم ، وبذا فهموا المنطق الصوري خطأ واستخدموه خطأ كذلك ؟ ماذا قصد من الحس وأي شيء أراده بالتجارب ؟ أأراد بها ما يتعلق به خاصة أم أراد تلك التي تكوّن قواعد العلوم العامة ؟ هذه أسئلة يعلق العلماء على جوابها الفصل بين بحث وبحث .

فإذا كان الباحث متأثراً بشخصه في وضع « مقياس » الحقيقة سمي المقياس شخصياً . وعليه فالذي يجعل من ثقافته الخاصة ، وواقعه الخاص ، وعقله وعاداته الخاصة ، ونظرته الخاصة في الحياة مقياساً للبحث كان مقياسه شخصياً

والباحث الذي يبعد كل هذه العوامل الشخصية في البحث عن الحقيقة يكون قد قصد إليها متجرداً ، وتكون حقيقته التي وصل إليها حقيقة مجردة وعلى قدر تجرده في بحثه مما هو شخصي يكون ظهور حقيقته ناصعة ، أي لم يسدل عليها أي غشاء شخصي لا دخل له في ماهيتها الذاتية

والمقياس الشخصي اعتباره بالنسبة إلى الشخص الذي وضعه فحسب ؛ فلا تلزم نتائجه غيره ولا تبنى عليه أحكام عامة . أما المقياس المجرد Objective فاعتباره عام ، لأن تجرده من الأثر الشخصي يبعد عنه نزاع الأفراد ويحمل كل فرد (تقريباً) على الاعتراف به ، ولهذا تكون لنتائجه وأحكامه قوة القوانين والمبادئ العامة

وقد كان الشخص نفسه في القديم معيار المعارف والعلوم ، متخذاً ذاته أساساً لبحث الحقيقة والحكم على التصرفات والسلوك الإنساني بأحكام خلقية ، فما تخيله حقيقة فهو حقيقة (في الواقع)

وما وقع حسنه فى نفسه فهو حسن (فى الواقع) . وأصبحت المعرفة لذلك عبارة عن حقائق شخصية ، وأصبح الشيء الواحد له أكثر من حقيقة . ولم يلبث أن أصبحت هذه الطريقة مذهباً فلسفياً عرف بالمذهب الشخصى Subjectivism كما عرف أتباعه بالشخصيين (وهم السفسطائيون فى العهد الأول)

ومع أن الفلاسفة الذين جاءوا بعد السفسطائيين ، مثل أفلاطون وأرسطو حاولوا التدليل على أن « حقائق الأشياء ثابتة » أى غير متعددة تبعاً لتعدد الأفراد ، وغير متغيرة لما بينها من مغايرة وفروق بحكم هذا التعدد ، ووضعوا لتعرفها قانوناً عاماً يسمى آلة العلوم ومعيار العلوم وهو المنطق الصورى ؛ ومع أنهم وصوا بعدم إقحام العادات والعقائد الدينية فى البحث لم تخلص معارفهم ولا الأحكام التى كونوها عن الله ، والعالم ، والإنسان — وهى فلسفتهم — من التأثر بثقافتهم الخاصة ، وبيئتهم الخاصة ، ونظراتهم الخاصة إلى الحياة ، وهى ما نلمسها فى الفرق بين فيلسوف وفيلسوف

اتجه التفكير بعد ذلك ، وهو البحث الفلسفى ، إلى الإمعان فى الفصل بين المؤثرات الشخصية ، والنظر إلى الأشياء على ما هى عليه فى الأبحاث العلمية ؛ أو بعبارة أخرى مال إلى تجريد القياس الذى يتخذ أساساً للبحث من الخصائص الفردية . ولم يستطع العقل « الحر » أن يسير خطوة فى تحقيق هذه الرغبة إلا منذ عصر النهضة ؛ أى بعد أن أخذت شعوب أوربا تتحرر من سلطان الكنيسة

وقد كان لموقف الإسلام تجاه الأبحاث الفلسفية منذ القرن التاسع الميلادى إلى القرن الثانى عشر أثر كبير فى التشجيع على عملية الفصل هذه . فبينما كانت الكنيسة فى الغرب تفرض أن تكون العقيدة الكنسية المبدأ الذى يأخذ منه البحث مجراه ، كان المسلمون فى الشرق ، ثم فى الغرب أيضاً يبحثون فى فروع الفلسفة المختلفة ؛ فى الطبيعة والرياضة حتى فى المسائل الإلهية ، والأبحاث النفسية الخلقية ، فى جو مملوء فى عمومه بحرية البحث وأنتج من فلاسفة المسلمين من استطاع أن ينتج . ووصلت فلسفتهم مميزة الفروع ، أى لم يراع فى بحثها مبدأ واحد كبدأ العقيدة مثلاً ، إلى أوربا عن طريق أسبانيا

فلما احتك العقل الأوربى الراغب فى التخلص من الجولان حول نقطة واحدة ، نقطة العقيدة، بالعقل الشرق الإسلامى الذى لم يتحكم فى تفكيره اتجاه خاص ، ازدادت رغبته فى بحث الكون من الكون نفسه ، فترك العقيدة جانباً ، أى ترك أهم عامل من العوامل التى تؤثر فى بحث الشخص والتى تجعل مقياسه العلمى شخصياً ، وعمل على تخلية نفسه من كل اعتبار آخر غير اعتبار « الحقيقة » لذاتها

وكان ديكارت أول فلاسفة عصر النهضة الذى نفذ هذه الرغبة فى صورة منظمة كاملة . ثم نحا كثير من الفلاسفة نحوه وهو العمل على وضع مقياس علمى مجرد عن الأثر الشخصى ، مقياس objective ، ولم يكن اختلافهم الذى بدا فى مذاهبهم المنسوبة إليهم اختلافاً فى وجوب اعتماد المعارف الإنسانية وفى حاجة يقينيتها إلى مثل هذا القياس ، بل كان فى كمية الشروط وفى كيفها التى تحقق مثل هذا القياس المنشود

وإذن أصبحنا نرى فى تاريخ الفكر البشرى مقياسين للمعارف: القياس الشخصى، والآخر غير الشخصى (المجرد) ، ونرى كذلك لاتجاه طابعين : الطابع الشخصى والطابع الذى يتعدى الفرد والشخص

والتفلسف لم يقم — منذ أن قام — إلا لإيجاد القياس غير الشخصى ، وإلا لأن يطبع أبحاث الإنسان وعلومه بطابع الاعتبار العام كى يتخذ منها أساساً واضحاً ، بعيداً عن النزاع الفردى ، فى إرشاد الإنسان نفسه وفى تمكينه من السيطرة على بيئته ، وبالتالى فى تقريب أفراد الجماعة الإنسانية بعضهم من بعض وفى تكوين ما يسمى « بالعقل الإنسانى »

والفلسفة فى بدئها ونهايتها ، وفى قديمها وحديثها ، لم تعمل لغير هذه الغاية . وما يبدو فى معارف الإنسان الأولى من خيال أو وهم أساسه استخدام المقياس الشخصى فى بحثها ، وما يبدو فى علومه الآن من عقل ومنطق أساسه التقرب بقدر ما يمكن من المقياس الثانى ، والتخلى بقدر المستطاع عن العوامل الشخصية فى البحث

وعلماء النفس حينما نظموا الأبحاث النفسية الحديثة ، فرضوا « للجماعة » نفساً كنفس الفرد سواء بسواء ، وطبقوا عليها لذلك مظاهر التطور النفسى من طفولة فراهقة فرشد وبلوغ

وجعلوا من مميزات الطفولة « الأنانية » أو ما يسمى « بأنا » لأن الطفل فى أحكامه يصدر عن « ذاته » وليس عن الواقع المجرد عن شخصه ونفسه . وجعلوا من مظاهر المراهقة الوقوف

بين بين، إذ أحكامه وتصرفاته defoss غير واضحة المصدر . ولذا نراه يعيش كثيراً فى الخيال الذى لا يمت إلى الحقيقة الراهنة بصلة وثيقة . وأحياناً يساير الواقع ؛ ولكنه فى خياله ملك ممتع ، وفى حقيقته إنسان ضعيف بكثر البكاء والملل من هذه الحياة ؛ لأن القلم الذى يسطر به فى صحف الخيال لا يقدر على متابعة الكتابة فوق صخرة الواقع . وجعلوا من مظاهر الرشد أو النضوج ربط التصرف بالواقع ، وعدم إقحام المؤثرات الشخصية فى الحكم عليه ، والنظر إليه « بعين الحقيقة » لا بعينه هو

وكذلك حكموا على الجماعة فأطلقوا عليها جماعة ساذجة، أو لم تزل بعد فى دور الطفولة ، إذا كانت تجعل الفردية أو الشخصية أساس المعرفة ؛ وحكموا عليها ببلوغ طور المراهقة إذا حاولت الفصل بين الشخصى والواقع ، وببلوغ طور الرشد والنضوج إذا اتجهت فى أبحاثها نحو الواقع أكثر من تأثرها بالعوامل الشخصية

وعلى هذا فالتفلسف ، أو بحث الإنسان العقلى داخل الجماعة البشرية ، يمثل دور الطفولة فى الوقت الذى كان يسيطر فيه المذهب الشخصى Subjectivism ، ويحكى دور المراهقة فى الزمن الذى بدت فيه الرغبة إلى الفصل والعمل على تنفيذ تلك الرغبة . وفى عصرنا الحديث يدخل فى دور الرشد والنضوج لأن السائد فى أبحاثه مذهب الـ objektivism

هذا عرض تاريخى موجز لأساليب البحث فى القديم والحديث بالنسبة للفلسفة والتفلسف ، وفى أطوار نمو الفرد وتدرج الجماعة فى التفكير من الوجهة البسيكلوجية .

وفى ضوء هذا نعود إلى هؤلاء الباحثين ، أمثال ذلك الباحث « الأنانى »، الذين تتصل أحكامهم صلة وثيقة بذواتهم، وتتكون مما لهم من ثقافة خاصة ونظرة خاصة فى الحياة لنقول لهم : إن هذه الأبحاث ما دام مصدرها « أنا » وغايتها « أنت » سوف يكون اعتبارها شخصياً لا تؤدى نصيباً فى الإنتاج الفكرى العام .

ثم إلى هؤلاء الأقلاء الذين يسلكون فى أبحاثهم طريق « العقل الكلى » ، عقل الإنسانية — لا ذلك العقل الجزئى — لنقول لهم أيضاً : عليكم وحدكم يتوقف توجيه أمتنا فى حياتها العقلية وعليكم وحدكم يتوقف مستقبل التفكير فى مصر والسير به إلى طور الرشد والنضوج !

محمد البهى
دكتوراه فى الفلسفة وعلم النفس
من جامعتى برلين وهامبورغ

مزامير النفس العربية !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

١ — ضمائر المهد الأول

نحن الآن فى قلب الجزيرة ... فى جاهليتها الأولى ؛ التربة بمعانى طفولة البشرية التى تملأ الحياة شعراً وتهاويل وأوهاماً ...

نخوض فى بحر من الرمال يغلى بالحرارة ، ويبسط على الجلود لفحات من لظى تصيب الأجسام بقشعريرة من بُحران الحمى التى تصهر الأجسام ، وتجعلها جمرات مشبوبة الشاعر ، ثائرة العناصر ، حديدة المزاج ، مكشوفة الرماد عن الطبع الخالص ، والفطرة الصريحة ...

ننقل الخطا على تراب آبائنا الأولين ، ونبحث فيه عن عظامهم التى غابت فى التلال والرجام ...

ونشم فيه دماءهم التى ابتلعتها الرمال المتعطشة أبداً مع ما ابتلعت من دموع النهام ...

ونحدق فى الأضواء والظلمات إلى صورهم التى طبعت فى ألواح الأثير مع ما صبته الشمس والكواكب من الأضواء والظلال ... ونتسمع إلى أصواتهم التى فنيت فى الصمت المطلق ...

فتطالعنا من وراء الغيب أشباح لها وجوه سمراء ، حادة النظرات ، دقيقة الأنوف ، عريضة الجباه ، عليها سيما الكبرياء والاعتداد ، وسهوم العزلة والتفرد ...

يمتصون حرارة الصحراء ، وينضحونها دماء حارة ، وحرية حمراء ...

ويصيدون النغم الذائب فى الأجواء ، ويصوغونه شعراً منثوراً ومنظوماً ببيان يقتحم الآذان ، ويلقف المعقول ...

ينشدونه فى هيا كلهم المبنية بجدران من جبال ، وأعمدة من نخيل فارعات كالمردة ...

ويتغنون به فى مواسم الحب والحرب على حواف الآبار ، وشواطئ بحار السراب والآل ...

ويقيمون للبيان أسواقاً يعرضون فيها لعب الجن بأرواحهم

وقلوبهم وألسنتهم ، ويتركون أنفاسهم خالدة فى ألفاظهم ميراثاً محفوظاً لمن يأتى بعدهم ...

منثورون فى صحرائهم محجوبون بها عن عيون الأمم الطامعة كأنهم جن متخفية فى عالم بعيد ...

سيوفهم شائلات كأذناب العقارب يضربون بها دفاعاً عن الحرمات ، وعشقاً للحريات ، وشراء للشرف والمكرمات ...

إبلهم تهدر فى صمت الصحراء بأصوات كالأمواج المحبوسة والزلازل المكتومة ...

تسيل بها الأباطح راقصة برقابها البيض والسود ورؤوسها الصغيرة ذات العيون الساهمة ...

يحدو لها إنسانها بأصوات صادرة من قلوب عميقة تيّمها الحب والشوق الأبدى ، وجرحها الفراق الدائم فى سبيل الرعى والانتجاع وحب الأسفار والفرار من ثأر أو لإدراك ثأر ...

يظعنون بها قوافل ، عنق جمل فى ذيل آخر ، فى خطوط طويلة ترتسم على الآفاق فى الأماسى والأسحار والضحوات والأصائل ...

تحسبها أشباحاً ضالة تهيم فى خيال شاعر ...

حتى إذا وصلوا إلى شواطئ الحضارة فى الشمال أو الشرق أخذوا حاجاتهم المحدودة من أسواقها ، وتسقطوا أخبارها ، ثم عادوا بُجْر الحقائب بركب موسوق تعربد قلوبهم من الشوق إلى الحبائب اللواتى هن النعيم العزيز الوحيد للقلب العربى الذكى المحروم.

والخيام تخفق فيها هبوات الريح على الرُّبا والتلاع ، أمامها نيران موقدة تنادى بضوئها عيون الضالين للقرى فى أمواج البيد والظلمات ...

والنيران راقصة عارية تغازلها عيون الرجال من بعيد ...

والصبية والجوارى يرقصن ويغنين بأصوات فيها أنغام محدودة مكررة ...

وتحمل النسائم أصواتهن إلى آذان الخيل فترقص فى حماسة وخيلاء ...

ثم يفنى كل هذا فى صمت الصحراء !

* * *

أمة اندمجت فى الطبيعة ، وغابت فيها بأشخاصها ، وعبدت مظاهر القوة فيها ، وتسمى أفرادها بأسماء الجماد والنبات والوحش فقالوا : أسد وذئب وكلب وثعلب ونمر ويربوع وحجر وحنظل وجندب وصرة وزهرة وأنف الناقة ...

ووضعوا قلوبهم على كل شىء فيها يتحسسون نبض الحياة ، كما يعلق الفنان المستغرق قيثارته على الأغصان يتسمع بها إيقاع الريح ووسوسة الحصى واصطفاق الأمواج ...

ثم خلعوا من أوهامهم الشاردة على الحجارة صوراً وتماثيل لمسوها بأيديهم وعبدوها فى غيبوبة فكر وثوران قلب وقلة علم

والكهنة والعرافون — وهم الأذكياء منهم — اختلطت فى نفوسهم رُؤَى الكون المبهم ، وهم محرومون من تعليل العلم وهدى النبوات ؛ فصارت الحياة أمامهم رموزاً وألغازاً شردت نومهم وجعلتهم يهيمون فى أرض عبقر مع الجن والخفاء والخوف وصرخات الإنسان الضائع الفريد ...

* * *

هؤلاء هم خميرتنا التى انحدرت منها إلينا عناصر ورواسب فى الدماء وخصائص فى الأعصاب ...

نزلت فى موجات وأنسال وأجيال إلى الهلال الخصيب فى العراق ووادى النيل وجنات الشام فى أدوار يعرفها التاريخ القديم ...

هؤلاء هم الذين دائماً تلدهم الجزيرة الولود ، ثم تقذفهم على أحضان بناتها و « داياتها » : العراق والشام ومصر . ليخففن عنها الحمل ويتعهدن ما تلد ...

هؤلاء هم الذين كانوا يلقحون دائماً ضعف أوطاننا بالقوة ، ومرضها بالصحة ، وتعقيدها بالبساطة ...

هؤلاء هم الذين ولدوا الفراعين من عهد « مينا » فى مصر ، والأشوريين والبابليين فى العراق ، والفينيقيين فى الشام ؛ وهم الذين عمروا العالم القديم ...

هؤلاء هم الذين ولدوا ابراهيم أبا أنبياء العالم المتحضر ، فأخضعوا أشرف ما فى الحياة لسلطانهم الروحى المتجدد على أيدى موسى وعيسى ومحمد

هؤلاء هم الذين اكتسحوا فى موجتهم الكبرى جميع الفروق التى كانت بين أبناء ما يحيط بهم وطوّوا الجميع فى الدين الواحد واللغة الواحدة والعادات الواحدة

وهؤلاء لا يزالون يعمرون بوادى الجزيرة محتفظين بحياتهم

مبعثاً لقوتنا وتخليداً لدمائنا واحتفاظاً بميراثنا وبياناً لمراقتنا فى الحرية والمساواة والعزة والفطرة

فواجبنا أن نلق بيذورنا وغراسنا الناشئة إليهم فى دور من أدوار التربية والتكوين لتتصل الطبائع بينابيع القوة ... فنجعل الحياة معهم فترة من الزمن فرضاً محتوماً على الشباب من جميع أقطار الوطن العربى ... فإن هذه الحياة الحرة القوية الصريحة الطبيعية سوف تترك خمائرها وآثارها فى مقاومة الضعف والخنائة والبعد عن منطق الطبيعة وأسلوب الفطرة

وكما أن حياة البحر جزء من تكوين الإنجليزى فكذلك يجب أن تكون حياة البادية جزءاً من تكوين العربى حيثما كان . فالإنجليز يعتزون بحياة البحر وبالأخلاق المكتسبة منه كالصبر ومواجهة الصعاب والاعتداد بالنفس وحب الرحلة والكشف ... فيجعلون الخدمة فى الأسطول أمنية الأمانى أمام الشباب

وكذلك يجب أن يعتز العربى بحياة البادية والخدمة فى « أسطول الصحراء » ؛ فإنها تترك نفس الآثار والنتائج التى تتركها خدمة البحر فى النفس

إن العربى بقوامه المشوق الذى ليس فيه ترهل وفضول ، وبمجموعته العصبية القوية ، وبملامحه الحادة ومنطقه السريع المحكم المبين ، وبشهامته وكرمه وشجاعته وتقاليد فروسيته ، وشاعريته - ثروةٌ عظيمة تغنى الناس بكثير من الأخلاق التى يفتقدونها الآن فلا يجدونها . وقد صارت له صورة رمزية شعرية فى أذهان الأمم يحيط بها إطار من هذه الأخلاق

وهو إن كان فى باديته معدوداً من الإنسان البُدائى فإن اختياره هذه الحياة وتجميلها بصفات ربما لا يحظى بشرفها غيره من سكان العالم المتحضر ، قد جعل الأمم تنظر إليه نظرة خاصة غير النظرة التى يأخذون بها من هم فى مستواه الاجتماعى والاقتصادى فى البوادى والحواضر

* * *

فى قلب الجزيرة الآن دولة هى معجزة من معجزات هذه الأمة التى طالما ملأت التاريخ بالمعجزات

دولة هى فى سلامها وأمنها حديث صامت من أحاديث القدر يرسله فى القرن العشرين درساً لمن ملأوا الدنيا قوة ودساتير وشرائع لكفالة النظام والسلام ، ومع ذلك لا يزالون مطارَدين من الهدم والفوضى والإجرام

دولة أقامها ووطدها رجل لا يعرف تزويق الكلام ولا مضغ الأحاديث ، وإنما عرف الطبيعة والفطرة واستمد من أحكام كتابها وميراث رسولها ... فأقام دولة الأحلام التى زعموا أن الذئب رعى فيها الأغنام ...

دولة جددت الطبيعة العربية وأبرزتها فى إطار من فن البداوة فى القرن العشرين ، وجلت ميراثها القديم الذى صار من إيغاله فى القدم جديداً طارفاً وبدعاً مستحدثاً ...

وكان لا بد من قيامها فى نهضة العرب هذه لرد الإيمان إلى قلوبهم وبعث الحنين فى نفوسهم إلى مهدهم الأول وعرشهم الأبدى ... فهى عنوان عريض ودليل جديد على أن أصول حياتهم عريقة واشجة فى مناجم الحياة ومنابت الناس ...

فليحتفظ العرب دائماً بخمائر حياتهم وورائات مهدهم الأول مجردة من الوثنيات والجهالات ...

وليسيفوا على الحياة فى قلب الجزيرة جواً من فن الفكر وشعر الروح ...

وليفروا إليه فترة من الزمان ليخلعوا عن أنفسهم آثار الحياة فى التعقيد والتكلف والضعف الذى يستلزمه الخوض فى الطين والحرير والطرق المعبدة التى ليس فيها شوك وقتاد ...

إنما الإسلام فى الصحرا امتهد ليجىء كل مسلم أسد !

(القاهرة) عبد المنعم خلاف

في الاجتماع اللغوي

نشأة اللغـــة الإنسانية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

اختصاص الإنسان باللغة ومراكزها

عرضنا في المقال السابق إلى أهم أنواع التعبير الإنساني ، فذكرنا أنها ترجع إلى أربعة ضروب :

١ — التعبير الطبيعي عن الانفعال بأمور مرئية ، كتفتح الأسارير وانقباضها ، واحمرار الوجه واصفراره ، ووقوف شعر الرأس وارتعاد الجسم وما إلى ذلك من الظواهر المرئية الفطرية التي تصحب مختلف الانفعالات

٢ — التعبير الطبيعي عن الانفعال بظواهر مسموعة ، كالضحك والبكاء والصراخ . وما إلى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التي تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور

٣ — التعبير الإرادي عن المعاني بأمور مرئية ، كالإشارات اليدوية والجسمية التي تستخدم مستقلة أو مع غيرها بقصد الدلالة على المعاني والمدركات

٤ — التعبير الإرادي عن المعاني بظواهر مسموعة ، وهي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات . وهذا النوع هو الذي تنصرف إليه كلمة اللغة إذا أطلقت

وسنشرح في مقال اليوم مدى مشاركة الحيوانات للإنسان في كل نوع من هذه الأنواع الأربعة

تشترك معظم فصائل الحيوان مع الإنسان في النوعين الأول والثاني من أنواع التعبيرات السابق ذكرها (التعبير الطبيعي عن الانفعالات بمظهريه المرئي والمسموع) . فانفعالات الحيوان ، جسميها ونفسيها : كالجوع والعطش والسرور والفرح والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب ... وما إلى ذلك ، يثير كل منها لدى المتلبس به طائفة خاصة من الحركات الفطرية غير المقصودة ، وهذه الحركات بعضها بصري ، أي يصل عن طريق حاسة النظر : كاتساع الحدقة وضيقها ، وبسط الأذنين وخفضهما ، والتكشير عن الناب ، ووقوف الشعر ، وانتفاخ الجسم والأوداج ، والهرب والاختفاء ... وما إلى ذلك ؛ وبعضها سمعي ، أي يتمثل في صوت يصل عن طريق الأذن : كرغاء الناقة وبغامها ، وصهيل الفرس وقبعه[1] عند نفوره من شيء وحمحمته عند الجوع أو الاستئناس ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمار ، وخوار البقر ، وثغاء الغنم ، وزئير الأسد ، وعواء الذئب ، وتضوره وتلعلعه عند جوعه ، ونباح الكلب ، وضغاؤه إذا جاع ، ووقوقته إذا خاف ، وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه ، وضباح الثعلب ، ومواء الهرة ، وضحك القردة ، وصرصرة البازي ، وقعقعة الصقر ، وهدير الحمام ، وسجع القمري ، وزقزقة العصفور ، ونعيق الغراب ، وفحيح الحيات وكشيشها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض إذا انسابت ، ونقيق الضفدع ... وهلم جراً ...[2]

وتشترك كذلك بعض فصائل الحيوان مع الإنسان في التعبير الإرادي البصري ، وهو التعبير بالإشارة . ويبدو هذا على الأخص لدى الحيوانات التي تعيش جماعات كالنحل والنمل والقردة والبقر والنعم والوعول وما إليها — فقد ثبت أن كثيراً من هذه الفصائل وغيرها تستخدم أحياناً بعض إشارات جسمية للتعبير بشكل مقصود عن بعض شئونها . ففحل الأوعال (الأيل) يستخدم في أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات برأسه وقرونه للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع ، وبعض إشارات للسير فيسير جميع أفراد القطيع ؛ ويستحث المتخلفات بأن ينطح كلا منها نطحاً خفيفاً . ويستخدم الأذكياء من الكلاب مع أفراد فصيلتها ومع الآدميين بعض إشارات بالرأس وغيره للتعبير بطريق إرادي عن أمور خاصة ، كأن تمر بأظافرها على الباب ليفطن أصحابها إلى وجودها فيفتحوا لها ، أو تدفع إناء طعامها برأسها للتعبير عن حاجتها إلى الغذاء ... وهلم جرا

وتستخدم كذلك فصائل القردة ، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا والشمبانزيه والجيبون والأورانج — أوتانج) ، وفصائل النحل والنمل بعض إشارات من هذا القبيل . فقد كشف العلامة كوهلر Kœhler عن ظواهر كثيرة من هذا النوع عند فصائل القردة العليا : منها ما يعمله الشمبنزيه حينما يريد أن يرافقه آخر في طريقه ، أو يرغب أن يعطيه أحد

(١) صوت يردده الفرس من منخره إلى حلقه عند نفوره من شيء .

(٢) أنظر في هذه الأصوات وغيرها فقه اللغة للثعالبي ص٢٠٩ — ٢١٢ طبعة بيروت

زملائه شيئاً مما في يده ، أو يطلب نداءه عن بعد : فإنه في الحالة الأولى يحتك به بخفة ويجذبه من ذراعه محدقاً فيه ومُتقدِّماً بعض خطوات في الطريق التي يود أن يسلكاها معاً ؛ وفي الحالة الثانية يمد يده إلى زميله مدّ الاستجداء ؛ وفي الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما نفعل نحن في مثل هذه المناسبة(1) . وقرر الأساتذة فرانكلين وكيربي وسبنسر وبورميستر وهوبير Franklin, Kirby, Spencer, Burmeister, Huber أن كثيراً من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها ، بعضها مع بعض ، إشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها ، وأن هذه الإشارات تتمثل في احتكاك بعض أعضاء المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة . وقام العلامة لوبوك Lubbock في هذا الصدد بطائفة كبيرة من التجارب ، فتبين له صدق ما ذهب إليه هؤلاء الأساتذة(2)

وأما النوع الأخير من أنواع التعبير التي أشرنا إليها أول هذا المقال ، وهو اللغة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، أي الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات ، فيظهر أن الإنسان قد اختص بها من بين سائر الفصائل الحيوانية

حقاً إن بعض طوائف الحيوان تصدر عنه أصوات شبيهة في ظاهرها بهذا النوع من التعبير ، ولكن بالتأمل في هذه الأصوات ، يتبين أنها عارية من خصائص اللغة في صورتها الصحيحة ، وأنها ترجع إلى فصيلة أخرى من فصائل الأصوات . وسنعرض فيما يلي لأهم ما يبدو عند الحيوان من هذا القبيل ، معقّبين على كل مظهر منها بما يبين وجوه الفرق بينه وبين اللغة الصوتية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة

(1) انظر كوهلر : ذكاء الفصائل العليا من القردة صفحة ٢٩٤ وتوابعها (الترجمة الفرنسية) L'Intelligence des Singes Supérieurs

(2) أنظر :

Ribot: Evolution des Idées Générales, P. P. 66, 67
Lubbock: Ants, Bees, and Wasps
Romanes: Animal Intelligence

هذا ، وقد أنكر بعض العلماء وجود الاشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوان . ومن هؤلاء العلامة واسمان Wasmann الذي يرى أن كل الاشارات الحيوانية التي يخيل للانسان أنها من هذا النوع هي في الحقيقة فطرية ، وأنها لا تدل المخاطب على شيء معين ، بل تقتصر على إثارة نشاطه في ناحية يحددها العمل الذي سيتلو الاشارة . وتابعه في هذا أستاذي العلامة دولاكروا (انظر دولاكروا Delacroix: اللغة والفكر ص ٧٠ وتوابعها)

يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من هذه الأصوات إلى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصداً بها التعبير عن بعض شؤونه: كالحمحمة التي يرددها الفرس بشكل إرادي عند رؤية صاحبه للتعبير عن حاجته إلى العلف ، والمواء الذي يلجأ إليه الهر لينبيء به عن جوعه ، والنباح الذي يلفظه الكلب قاصداً به إيقاظ أهل المنزل أو إرشادهم إلى أن شخصاً أجنبياً يحوم حول البيت ... وهلم جرا

وهذه الطائفة ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء وإن أشبهتها في ظاهرها ووظائفها . وذلك أنها أصوات مبهمة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الكلام ، كما لا يخفى ، اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض . هذا إلى أنها في الأصل أصوات فطرية تصحب الانفعالات ، وأن كل ما يعمله الحيوان حيالها في هذه الحالة أن يرددها هي نفسها بشكل إرادي للدلالة على نفس الانفعالات التي تعبر عنها في شكلها الفطري أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع ، العطش ، الخوف ... الخ) . وأصوات هذا شأنها لا يصح عدها كلاماً ؛ لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة للدلالة ، وأنه يعبر عن معان لا عن انفعالات

الطائفة الثانية : أصوات متنوعة تلفظها القردة في اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادي ، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض. وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح في الفصائل العليا من القردة وبخاصة « الجيبون »

وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء وإن أشبهتها في ظاهرها ومناسبات استخدامها . فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعي عن الانفعال ، وبعضها مجرد ترديد إرادي لهذا التعبير ، وبعضها من ظواهر التداعي الآلي(1) أو العدوى الصوتية(2) أو تقليد الحيوان بطريق

(1) وذلك أن يرتبط الصوت بشيء آخر بطريقة تجعله يظهر بشكل منعكس غير إرادي كلما ظهر هذا الشيء ، وسيأتي بيان ذلك بتفصيل في الطائفة الثالثة

(2) تبدو ظاهرة العدوى الصوتية عند كثير من أنواع الحيوان، وتبدو كذلك عند الأطفال إذا ضمهم مكان واحد . يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات الآخرين ، ويبكي أحدهم فيبكي لبكائه الباقون : أنظر تفصيل هذا بكتابي « في التربية » ص ٧٠ وتوابعها

فطرى غير إرادى لأصوات نفسه أو أصوات غيره[١] . — هذا إلى أنها على الرغم من تنوعها ؛ وعلى الرغم من تشابه أعضاء النطق عنـد فصائل القردة بأعضاء النطق الإنسانية أصوات مبهمة بسيطة عارية عن المقاطع والـكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الـكلام ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض[٢]

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطعة تلفظها بعض الطيور كالببغاء ، وما إليها من الفصائل التى امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية تتيح لها إخراج هذا النوع من الأصوات .

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء ، وإن أشبهتها فى الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير ، فهى تصدر عنه فى ثلاث حالات كلها فطرية آلية عارية بتاتاً عن هذا القصد :

الحالة الأولى : حينما يكون الطائر متلبساً بانفعال جسمى أو نفسى . وهى فى هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعى عن الانفعالات : تصدر عن غير قصد ، ويثيرها بشكل آلىّ الانفعال المتلبس به الطائر . وإثارتها مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التى تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلىّ أو منعكس ، وتلفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهى حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما إليهما من مظاهر « التعبير الطبيعى السمعى » وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعى السمعى يبدو عند الحيوانات الأخرى فى صورة أصوات بسيطة مبهمة ، ويبدو عند هذه الطيور أحياناً فى صورة أصوات مركبة ذات مقاطع

والحالة الثانية : حينما تكون محاكاة لصوت إنسانى سمعه الطائر . وهى فى هـذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلىّ عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها . وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة

(١) سيأتى شرح هذا فى الطائفة الثالثة

(٢) أنظر فى هـذا الموضوع بحوث الأستاذ Pfungst الذى درس أكثر من مائتى قرد فى حديقة الحيوانات ببرلين ، وبحوث Bouton الذى لاحظ فى أثناء خمس سنوات أدوار نمو قرد من فصيلة الجيبون، وبحوث كوهلر الذى كتب كثيراً فى القردة وبخاصة فى القردة العليا التى ألف فيها كتابه الشهير : « ذكاء القردة العليا » . وانظر كذلك ما كتبه أستاذنا العلامة دولاكروا فى كتابه : « اللغة والتفكير » ص ٧٢ وتوابعها .

تجعل أعضاء الجهاز الثانى تتحرك وحدها وتلفظ بشكل آلىّ نفس الأصوات التى يحسها الجهاز الأول . فكلما وصل صوت إلى سمعها ، فى ظروف خاصة ، انبعث صداه من أفواهها[١]

(والحالة الثالثة) قد تسمع الببغاء أحياناً كلمات أو أصواتاً فى مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصد بها التعبير عن أمر معين : فقد تسمع مثلاً أصحابها ينادون طفلاً باسمه فتكرر هذا الاسم كلما رأت الطفل أو رأت دميته أو متاعاً من أمتعته[٢]

وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة فى شىء وإن التبست بها فى بادئ النظر ، وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، فى الواقع ، التعبير عن أمر ما ؛ وإنما تصدر منه بشكل غير إرادى على الصورة التى تصدر فيها ظواهر « التـداعى الآلى » . فمن كثرة تكرار الـكلمة أمام الطائر ، بحضرة الشخص أو الشىء الذى تدل عليه ، يرتبط صوتها بصورة مدلولها ، فينبعث الصوت من الطائر بشكل آلى كلما ظهر أمامه المدلول أو ما يتصل به[٣]

هذا ، ولا يمتاز الإنسان بهذا الصدد عن بقية فصائل الحيوان باللغة الصوتية فحسب ، بل يمتاز عنها كذلك بطائفة من المراكز المخية التى تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة : (مركز إصدار الألفاظ ، مركز حفظ الـكلمات المسموعة ... وهلم جراً) ... فقد ثبت أن هذه المراكز ليس لهـا نظير فى مخ أى فصيلة حيوانية أخرى ، حتى الفصائل العليا من القردة نفسها .

* * *

فالبحث فى نشأة اللغة يتطلب إذن دراسة موضوعين اثنين : أولهما نشأة الـكلام فى الفصيلة الإنسانية ؛ وثانيهما نشأة مراكز اللغة فى المخ الإنسانى .

وسنعرض لهذين الموضوعين فى المقالات التالية إن شاء الله

علي عبد الواحد وافى
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السوربون

(١) أنظر تفصيل هذا الموضوع بمؤلفى « فى التربية » صفحتى ٦٩ ، ٧٠

(٢) من أهم الملاحظات بهذا الصـدد ما دونه الدكتور ولـكس عضو الجمعية الملـكية بصحيفة العلوم العقلية ، عدد يولية سنة ١٨٧٩ Dr. Wilks, Journal of Mental Science

(٣) أنظر فى هذا الموضوع كتابى الأستاذ رومان « الذكاء الحيوانى » و « الارتقاء العقلى للانسان » . وانظر بحثا بهذا الصدد للعلامة ولـكس فى المجلة الفلسفية لسنة ١٨٨٠ Revue Philosophique . وانظر كذلك ما كتبه أستاذى دولاكروا فى كتاب « اللغة والفكر » ص ٧٨

الأمومة عند العرب

للأستاذ رفعة الحنبلي

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

وهناك نوع آخر من أنواع النكاح اشتهر به العرب ، كما اشتهرت بالنكاح الوقتى ، أعنى به : نكاح الذواق الذى كان يعقد دون شريطة ما، ويحل من نفسه إذا أراد ذلك أحد الطرفين متى لم يجد فيه اللذاذة والتنعم ، ومتى فقد منه الميل والعطف

على أن هنالك بعض أنواع من النكاح كان شائعاً بين العرب فى أيام الجاهلية شيوع النكاحين السابقين . جاء عن عائشة زوج النبى العربى : أن « النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء[1] : فنكاح منها ، نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها ؛ ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه[2] ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة منه فى نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ؛ ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ؛ تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان: تسمى من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل[3] ؛ ونكاح رابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها، جمعوا لها ودعوا القافة[4] ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاط به ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك[5]

(١) صحيح البخارى المجلد الثانى الجزء السابع صفحة ١٥ و ١٦

(٢) « ارسلى إلى فلان فاستبضعى منه » أى برجل من أشرافهم — تفسير القسطلانى

(٣) وهو ما يعرف بتعدد الأزواج Polyandrie

(٤) فسر القسطلانى كلة القافة « بالذين يلحقون الولد بالآثار الخفية »

(٥) وهو مايعرف بنكاح المشاركة Hétérisme

لم تكن تلك الأنواع من الزواج إلا عادات تأصلت فى أخلاق القوم ، وتمكنت من نفوسهم ، فبقيت ظاهرة مدة طويلة بين العرب حتى بعد الإسلام ، وبعد أن هدم صاحب الشريعة الإسلامية نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم ، ذلك أن العرب لم تنهم الأوامر الإلهية ، ولا الشرائع السماوية عن هذه العادات التى ورثوها عن آبائهم الأولين ، جيلاً بعد جيل ، ولم تحملهم دفعة واحدة على التمسك بالزواج الشرعى

تبين لنا مما تقدم شيوع تعدد الأزواج ونكاح المشاركة وغيرهما بين العرب ، إذ لا سبيل إلى معرفة الأب بل ولا حاجة إلى معرفته أبداً ، إذ لم يكن الزواج الشرعى معروفاً ، وإذ كان الولد يتبع أمه ويتعلق بها فى جميع أموره ، على أن الرجل أخذ يشعر بالميل نحو طفله ، وبالعطف على ولده الذى كان هو سبب وجوده فى هذا العالم ، واشتد ميله إلى الاعتناء به وضمه إليه ، وإلحاقه به ، فنشأ عن هذه الظاهرة الجديدة ، عادة تعين أباً اختيارياً للولد ، معتمدين فى ذلك على ظواهر خارجية وعلامات خاصة ، وقد يكون تعين هذا الأب أندر فى زواج المشاركة منه فى تعدد الأزواج الذى كان يملك فيه بعض الأقارب - أو بالحرى بعض الإخوة - امرأة واحدة. فى هذه الحالة كان الأخ الأكبر أو من تنتخبه المرأة ، أو من تعينه القافة ، يأخذ على عاتقه تربية وليدها وبتبناه ، كما أنه يعد — غالباً — أباً له، وإن لم يكن فى الحقيقة أباه . ولم يأخذ العرب بهذه الظاهرة الجديدة ، إلا بعد شيوع تعدد الأزواج ونكاح المشاركة ، وظهور أول مبادئ الزواج الفردى فى المجتمع الإنسانى ، إذ أنه لو كان دائماً للولد أب حقيقى أو كان يعين له والد ولو بتلك الطريقة الاختيارية ، لصعب على كل باحث أن يدرك الأسباب التى دعت إلى حصر القرابة فى الأم . فكثيراً ما نجد أن الولد فى الجاهلية ، ليس له أب حقيقى بل لم يكن أحد يتبناه وهذا ما أدى إلى شيوع الأمومة فى العرب أو التمسك بقرابة الأم

ومن الأدلة الواضحة على شيوع الأمومة عند العرب ، قبل قيام نظام الأبوة عندهم ، لفظة « بطن » التى تستعملها العرب حتى اليوم بمعنى العائلة أو القبيلة ، ولا ريب ، أن هذه الكلمة بمعناها الحقيقى تدل — فى زمن مضى — على أن المرأة كانت مصدر العائلة ومحورها .

ومن آثار الأمومة أيضاً ، اعتقاد العرب بانتقال الصفات الطبيعية من الرجل إلى ابن أخته ، وإن لم يكن بينهما في الحقيقة صلة رحم تجمعهما ، وهم إلى ذلك يؤمنون أن الولد ينشأ على غرار خاله ، في أخلاقه وميوله وعاداته ، دون أبيه ، لأنهم وثقوا بصلة داخلية جد قوية بين الخال وابن أخته ، يوم كان الولد يتبع نسب أمه وينتسب إليها ؛ فكم من أمير من أمراء الجاهلية خلفه ابن أخته في زعامته ، وورث عنه ألقابه وأمواله ، دون أولاده ؛ لذا كان العرب يفخرون بالخؤولة فخرهم بالأمومة .

وكذلك الرق ، فإنه أثر من آثار الأمومة ، انتقل إلى الإسلام من الجاهلية ، ومن صفاته أن الولد يتبع أمه ، وحالته تتوقف على حالها ، وهذا ما يعرف عند العلماء بأن « الولد يتبع الرحم » ، بمعنى أنه إذا كانت الأم حرة ، فولدها حر ، وإن تزوجت عبداً ؛ وإن كانت أمة ، فولدها عبد ، وإن كان زوجها حراً . وفي كلتا الحالتين ، يتبع الولد أمه في حالتي الحرية والرق .

ذكر مؤرخو الأدب ، أن عنترة العبسي ، الشاعر الجاهلي الكبير ، كانت أمه أمة حبشية ، وأبوه من سادات بني عبس ؛ أنف أبوه أن يلحقه بنسبه ، فجعله في عداد العبيد ، وكان عنترة عند أبيه منبوذاً بين عبدانه يرعى له إبله وخيله ، فرباً بنفسه عن خصال العبيد ، ومارس الفروسية ومهر فيها ، فشب فارساً شجاعاً هماماً ، وكان يكره من أبيه استعباده له وعدم إلحاقه به ، حتى أغار بعض العرب على عبس واستاقوا إبلهم ، ولحقتهم بنو عبس وفيهم عنترة لاستنقاذ الإبل . قال له أبوه : كر ، يا عنترة ؛ قال : العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن الحلاب والصر ؛ قال له : كر فأنت حر ، فقاتل قتالاً شديداً حتى هزم القوم واستنقذ الإبل .

لا ريب إذن في أن الأب الحر ، لا يقدر أن يجعل من ابنه ولداً حراً ، إذا كانت زوجه أمة ، ولو كان زواجهما شرعياً ؛ والأم الحرة تستطيع أن تجعل من ابنها ولداً حراً ، ولو كان زوجها عبداً رقيقاً . إن هـذا التفاوت بين حقوق الأرقاء ، إن هو إلا بقية من بقايا الأمومة التي نشأت عنها طبقة الأعيان عند العرب يوم كانت تؤثر نسب المرأة على نسب الرجل ، في حفظ شرف أسرتها .

يقول المستشرق سميث Smith إن العرب كانت ، في عصر الجاهلية ، على الزواج الخارجي Exogamie واستشهد على ذلك بما قاله Lenan الذي رد هـذا الزواج إلى العادة التي كانت شائعة بين العرب عن وأد الفتاة أو قتلها مما أدى إلى قلة النساء وزيادة عدد الرجال زيادة بينة، فاضطر الرجال إلى طلبهن في غير قبائلهم .

لا نكران أن بعض القبائل العربية كانت تمارس هذه العادة ، وكانت تئد بناتها بعيد ظهورهن ؛ قيل « كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية ؛ وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية — أي لها من العمر ستة أعوام — فيقول لأمها طيبيها حتى أذهب بها إلى أحمائها[1] ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظري فيه ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض »[2] وقيل « كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة ؛ فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت ابناً حبسته »

وورد في أمثال العرب ما يفهم منه أنهم كانوا يرتاحون إلى وأد البنات ؛ من ذلك قولهم : « تقديم الحرم من النعم » ، و « دفن البنات من المكرمات » . أما السبب في وأد البنات ، فهو إما خوفهم من لحوق العار بهم من أجلهن أو للتخلص من مؤونة تربيتهن[3] أو مخافة السبي والفقر والإملاق ؛ بل كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به فهو أحق بهن[4] . ولما ظهر صاحب الشريعة الإسلامية ، النبي العربي الكريم ، نهى الله عن هذه العادة وحرمها فقال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً[5] »

ويقال إن العرب ، قبيل الإسلام ، عدلت عن هذه العادة أو كادت ؛ فقد عرف عن صعصعة بن ناجية أنه كان يقاوم وأد البنات، ويفدي كل موءودة بناقتين وجمل، فلقب بمحيي الموءودات وبه افتخر الفرزدق إذ يقول :

---

(١) أو أحمائها

(٢) تفسير الزمخشري الجزء الثاني صفحة ٥٢٦

(٣) تفسير الزمخشري لسورة النساء . الآية ١٤١

(٤) تفسير الزمخشري الجزء الثاني صفحة ٥٢٦

(٥) سورة الاسراء

ومنا الذي منع الوائدات فأحيا الوئيد فلم توأد[1]

لم تكن هذه العادة من الأسباب التي دعت الرجال إلى طلب النساء في غير قبائلهم ، ولم تكن أيضاً سبباً من أسباب شيوع الزواج الخارجي عند العرب كما زعم Lenan و Smith إن ظاهرة طبيعية غفل عنها العالمان ولم يتنبها إليها ، هذه الظاهرة حرية بالتفكير والتأمل ، ذلك أن إحدى المفكرات Lombroso ذهبت إلى أن الإناث في المخلوقات جميعها تفوق الذكور منها عدداً ، وإذا تمشينا على هذه القاعدة نجد أن عدد البنات كان ولا يزال أكثر من عدد الصبيان ، فضلاً عن أن الرجل يتعرض دائماً لأخطار الحروب والأمراض أكثر مما تتعرض لها المرأة ، ومهمة الرجل كانت تقوم على محاربة العدو لحفظ كيان قبيلته من الفناء ، وعلى قتال وحوش الغابات والأحراش للحصول على أهم ما يحتاجه من مأكل وملبس

وإذا ما سلمنا جدلاً مع هذين العالمين ، أن وأد البنات كان من أسباب شيوع الزواج الخارجي ، فكيف سمحا لنفسيهما أن يتجاهلا نتيجة هذا الوأد في القبائل الأخرى ؟ فإن قل عدد النساء في قبيلة واحدة ، وجب أن تقل في قبيلة أخرى ، وهذا ما يجعل الزواج الخارجي عسيراً إن لم يكن مستحيلاً ...

فليس السبب الحقيقي إذن في شيوع الزواج الخارجي بين العرب وأد البنات ، بل هو شدة كراهة العرب لزواج القرابة . قال المستشرق Goldziher : إن من جملة الأقوال الحكيمة التي أبقاها عمرو بن كلثوم صاحب الملقة المشهورة وصيته لأولاده : « لا تتزوجوا في حيكم فإنه يؤدي إلى قبيح البغض » ثم أتى بمثل يشتم منه كراهة العرب للزواج داخل الحي ، أي الزواج الداخلي Endogamie وهو : الغرائب ولا القرائب

فالعرب إذن كانت في الأزمنة الغابرة على النكاح الخارجي وإن أخذت بالزواج الداخلي حيناً من الزمن ، إذ أصبح رجال القبيلة الواحدة يتزوجون من نساء قبيلتهم ، وليس في قبيلة أخرى ؛ إلا أن هذا الزواج لم يكن شائعاً شيوع الزواج الخارجي

ولقد رافقت الزواج الخارجي ظاهرة جديدة أخذ العرب بها ، هذه الظاهرة هي التحاق الزوج بزوجه وبالتالي بأسرتها وبقبيلتها، فبقاء المرأة ، بعد زواجها ، في قبيلتها ، وحملها زوجها على الإقامة حيث تقيم بين أهلها، تعد هذه الظاهرة صفة من صفات الأمومة، وكان من أمر هذا أن تبع الولد أمه والتحق بنسبها

فطن العرب إلى أهمية الزواج الخارجي من الناحية الوراثية ، إذ يكون النسل قوياً عقلاً وجسماً ، فأخذوا به ، بينما أهملوا الزواج الداخلي لاعتقادهم أن الزواج من القرابة يولد الفقر في العقول ، والضعف في الأجسام فنأوا عنه ؛ وهذه النظرية التي أخذوا بها تطابق — ولو إلى حد ما — النظريات الوراثية الحديثة

إلا أن هذا الاعتقاد يخالف ظاهراً ما اشتهر به العرب قديماً من أنهم كانوا يفضلون نكاح بنات العم على غيرهن ، لكن في الواقع ، لا نجد أي تناقض في هذه المسألة . ذلك لأن كل عربي يلقب محبوبته وخطيبته بنت عمه، وحماه بعمه، وإن لم يكن بين الطرفين وشيجة رحم أو صلة قرابة، وليس بوسع الباحث أن يرد سبب إطلاق كلمة العم على الحم ، وبنت العم على محبوبته ، إلا لتمسك العرب ، منذ القدم ، بالأمومة والزواج الخارجي الذي نتج عنهما الزواج بين أولاد الأعمام ، أي أنهم كانوا يسمحون لأولاد الأخوة الذين أمهاتهم من قبائل مختلفة أن يتزوج بعضهم من بعض ، لفقدان صلة القرابة بينهم باعتبار أن الأمومة تتطلب من الولد أن ينتسب إلى أمه ، وأن يتبع خاله بعدها دون أبيه

فالزواج لم يكن إذاً في ذلك العهد بين أولاد الأعمام وبنات العم زواجاً فيه قرابة، بل فيه بعد، في حين أن الرجل كان يحجم عن التزوج بابنة خاله لاعتقاده أن الخؤولة أكثر قرابة من العمومة، ولربما كان هذا الاعتقاد من الأسباب التي دعت إلى إطلاق كلمة بنت العم على المرأة عامة

« بيروت » رفعة الحنبلي

مصادر هذا البحث :

١ — القرآن الكريم
٢ — تفسير الزمخشري
٣ — صحيح البخاري
٤ — علم الاجتماع : لنقولا الحداد
٥ — الأمومة عند العرب
٦ — Georges Davy لمؤلفه Sociologues d'hier et d'aujourd'hui
٧ — G. L. Duprat لمؤلفه Le lien familial
٨ — Année Sociologique
٩ — Totem et Tabou par Dr. Seqm Treud

(١) تفسير الزمخشري الجزء الثاني صفحة ٥٢٦ .

النقابات الإسلامية

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدوري

أكثر الكتاب والمؤرخون في سرد الوقائع ، ووصف أبهة القصور وعظمة السلطان ، وجعلوا التاريخ سلسلة حوادث متفرقة متباينة ، وأغفلوا التيارات الاجتماعية التي كان لها أكبر الأثر في سير التاريخ ، يظهر هذا خاصة في التاريخ الاسلامي . ثم تنبه بعض المستشرقين لذلك ، وحاول أن يسد بعض هذا النقص . ولدينا في هذه الرسالة (النقابات الاسلامية) عرض عام لنتيجة البحوث عن أهل الصناعات والحرف في الاسلام

وقد ترجمت هذه الرسالة لأنها تعطى القارئ العربي فكرة عن نظر بعض المستشرقين إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية في التاريخ الاسلامي . وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة

Economic History Review, vol. VIII, No. 1937

ولكن النص العربي يحوى إضافات ومعلومات لم تنشر هناك ، وهي النتائج الأخيرة لأبحاث المؤلف عن الموضوع ؛ إذ تفضل باضافتها أخيراً . (ع . د)

إن طوائف أهل الصناعات والحرف هي من أهم ظواهر الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى .

يندر أن يجد الإنسان أثراً لما نسميه روحاً مدنية (نسبة إلى مدينة) ، أو تنظيما بلدياً (نسبة إلى بلدية) في البلاد الإسلامية فقد كانت المدن الإسلامية في القرون الوسطى وقتية الظهور على الأغلب ، تتمتع بازدهار تجاري أو ثقافي لمدة قرن أو نحو قرن ، ثم تتضاءل أو تختفي . وبهذا ندر وجود طوائف بلدية معينة ، أو وحدات متحضرة دائمة . إذ أن روح التكتل والتنظيم المحلي التي كان لها أهمية كبرى في أوربا في القرون الوسطى ، منعت من الظهور في الحقل السياسي بتأثير الأوضاع السياسية المضطربة في البلاد الإسلامية ، وسبقت تلك الروح لأن تجد لها منفذاً في الحياة الاقتصادية . وهكذا نجد في أصناف الحرف في الإسلام ما يساوي تلك الحياة المحلية القومية التي هي من أبرز مظاهر تاريخ أوربا في القرون الوسطى .

كانت النقابة مهمة في الحياة الإسلامية لدرجة أن تخطيط المدينة — التي كانت تبنى على أساس سوق تجارية — كان يقرر في كثير من الأحيان حسب حاجات أصحاب الحرف . فنرى أن المدن الإسلامية من مراكش إلى جاوة ظهرت بتماثل عجيب متمركزة حول ثلاث أو أربع نقاط أساسية

فأول نقطة ثابتة هي سوق الصرافين ، وهو مركز هام دائماً في النظام الاقتصادي الثنائي الأساس في العملة ، كما كانت الحال في البلاد الإسلامية في القرون الوسطى

ونجد حواليه جامعي المكوس ، ثم دار الضرب (إن وجدت هنالك واحدة) ، ثم سوق المزايدة ، ثم المحتسب وهو ملاحظ الأسواق . وهنا نجد الحمالين أيضاً

والمركز الثاني هو القيصرية ـ وهي بناية محكمة تخزن فيها البضائع والنفائس الأجنبية ويحتمل أن يكون الاسم بيزنطي الأصل . والمركز الثالث هو سوق الغزل ـ حيث يأتي النساء لبيع إنتاجهن اليدوي . وهنا نرى المتعاملين بالحاجات التي يشتريها النساء كالقصابين والخبازين وبائعي الخضر الخ ...

والمركز الرابع هو الجامعة أو المدرسة . وهي ملحقة عادة بمسجد ، وفيها يكون الطلبة والأساتذة نظام نقابة حقيقية . ويشتغل أهل الحرف حول هذه المراكز الأربعة ، كل صنف في سوقه الخاص . ويلاحظ من هذا أن توزيع النقابات يتبع هذا النظام في المدن المختلفة حيث توجد هذه المراكز الأربعة .

دعنا الآن ننظر في منشأ هذه النقابات ، وهو بحث يلاحظ فيه أنه لم يتقدم بالقدر الكافي

هناك رأي يقول بأن هذه النقابات هي متممة للنقابات البيزنطية التي سبقتها ، إذ كانت توجد نقابات متعددة في المقاطعات البيزنطية كسوريا ومصر حتى القرن السابع الميلادي . وليس من المحتمل أنه قضى عليها من قبل الفاتحين العرب الذين كانت سياستهم كما نعلم ترك الهيئات الإدارية والاقتصادية التي خلقها البيزنطيون كما كانت عليه تقريباً . ومع ذلك لا نرى أية إشارة إلى وجود نقابات إسلامية قبل القرن العاشر الميلادي ؛ أي بعد ثلاثة قرون (من بدء الفتح) ، كما أن هذه النقابات كانت من نوع يختلف تماماً عن النقابات الموجودة قبل الفتح الإسلامي . وليس لدينا إلا ملاحظات قصيرة متقطعة (عن النقابات) خلال

هذه الفترة وأولها جاء في تاريخ ابن عذارى المراكشي إذ يقول عن والى أفريقية والمغرب سنة ٧٧٠ م (١٥٥هـ) : « وكان يزيد (بن حاتم) هذا حسن السيرة فقدم أفريقية وأصلحها ورتب أسواق القيروان وجعل كل صناعة في مكانها[١] »

ومع أن الكتاب الذي يحتوي هذا النص قد كتب في القرن العاشر فلا مانع من قبول صحة هـذا الخبر وهو خبر طريف في ذاته ، إذ أنه يظهر أن الأمير العربي وضع العمال والأسواق في القيروان ، وهى مدينة جديدة بناها العرب الفاتحون ، تحت نفس الإدارة والمراقبة كما كان يفعل الحاكم البيزنطي في المدن المجاورة . ولـكن يظهر لى أن استنتاج وجود نقابات عربية في القيروان من هذه العبارة ، كما فعل « فون كريمر Von Kremer[٢] » و « أتجر Atger[٣] » غـير مؤيد بالبيانات الموجودة

وفي نهاية القرن التاسع الميلادي نجد عدداً لا بأس به من المصادر يشير إلى وجود شيء من نظام التكتل بين التجار وأصحاب الحرف . لـكن هذه الأصناف لم تصل بعد إلى درجة يصح اعتبارها كنموذج للأصناف الإسلامية . وإنما هى مجرد تنظيم عام وضبط للأسواق والحرف من النوع الموصوف في المصادر البيزنطية المعاصرة[٤] يمكن أن نستنتج من هذه الإشارات أن الأمراء المسلمين احتفظوا بأشكال السيطرة العامة التي كانت للإدارة البيزنطية على الحرف — على الأقل في معاملاتهم مع الصناع من غير العرب وغير المسلمين — وربما امتد ذلك حتى إلى المسلمين أنفسهم . وعلى كل حال فإننا نجد في القرن التالي تطوراً ظاهراً فيما يسمى بالأصناف الإسلامية ، وحينئذ نجدها من نوع لا يصح تعليله بالتأثير أو التراث البيزنطي . وتوجد نظرية أخرى بجانب هذه النظرية يتطلب فحصها الانتقال إلى موضوع قد يجهله غير المستشرقين

بدأ المستشرقون في السنوات الأخيرة يتأكدون أكثر فأكثر أن المذهب السني في العصر الأول للخلافة لم يكن أبداً

(١) كتاب ـ البيان المغرب في حلى المغرب ـ لابن عذارى المراكشي طبعة ليدن سنة ١٨٤٨ ج١ ص٦٨

(٢) Von Kremer - Kulturgeschichte des Orients, Vienna 1877, ii, p. 187 ص ٧

(٣) Atger - Les corporatims Tunisiennes, Paris, 1909

(٤) راجع Von Kremer و Metz - Renaisiamce of Islam

مذهب الطبقات العامة ، وكلما ازدادت دراسة الباحث في الأدب الإسلامي في القرون الوسطى ازداد الاتضاح من أن المذهب السني كان ينظر إليه في كل محل كدين طبقة مسيطرة ، دين الدولة وميزة الأرستقراطية العربية الحاكمة[١] وقد كانت هذه نظرية الفاتحين أنفسهم في الأدوار الإسلامية الأولى ، ولقد كانت الأكثرية الساحقة بين رعايا الخليفة — لقرون عديدة بعد الفتح الإسلامي — غير سنية تكره المذهب السني كرمز لسطوة طبقة أجنبية حاكمة تتمتع بامتيازات خاصة

ومع ذلك كان الشعور الديني قوياً بين الطبقات العامة ، وقد تجلى هذا الشعور بظهور سلسلة فرق متزندقة منشقة منذ القرن الثامن الميلادي حتى الفتح المنولى ، وتتصف جميع هذه الفرق تقريباً بفلسفة خاصة Symenetistic تحتوي عناصر مقتبسة من فرق سبقت العصر الإسلامي كالأفلاطونية الحديثة والمانوية والمزدكية وبفلسفة اجتماعية ثورية فيها عامل المساواة بين الأفراد وبتنظيم سرى يشبه النظام الماسوني ، وهى عادة من أفراد من مختلف الطوائف Interconfessional مع درجات من التنشيء والتهذيب ، ونجد مثلاً عصرياً لنجاح هذه الفرق وفشل المذهب السني في حالة المولديين في الهند الصينية (أندونيسيا) والفرنسيين في أفريقا الغربية ، حيث على الرغم من قواها المتفوقة نجد البعثات المسيحية تتقدم بين السكان الوطنيين بنجاح أقل من نجاح الدعوة الإسلامية . فهنا أيضاً يرى الزنجي أو الإندونيسي أن المسيحية متصلة بحكم أجنبي ، فيفضل أن يكون مسلماً من الدرجة الأولى على أن يكون مسيحياً من الدرجة الثانية

بلغت هذه الحركات الدينية أوجها في القرنين العاشر والحادي عشر . فقد كانا مرحلتي تطور صناعي وتكتل حضري . فظهور نظام راق للبنوك مركزها بغداد ، تنطي فروعها الإمبراطورية ، ساعد على تجهيز الدولة بالنقود ، وعلى حفظ النقود بصورة عامة أساساً للاقتصاد . وقد أثر هذا على النمو الصناعي ، فأنتج تمركزاً في رأس

(١) انظر Von Vloten - Recherches sur la Bomènation Arabe Amesterdam, 1849 أنظر أيضاً Becher - Islam Léudien Bartold - musulman Culture, Calcutta, et 34. p. 72-6, 100-102 ومما يسترعى النظر أن التقسيم بين السنة والمنشقين herébcs لا يناسب تماماً التقسيم بين العرب وغير العرب . فالطبقة الحاكمة في فارس من عهد الدولة الساسانية انضمت إلى المذهب السني بينما نجد الطبقات الفقيرة من العرب في سورية والعراق تأثرت بالمانوية وبزندقات أخرى

المال والعمل[١] كما وله النمو السريع فى رأس المال حسب المنتظر مشاكل اجتماعية خطيرة . إذ نقرأ عن سلسلة اضطرابات خطيرة فى بغداد ، وعن ثورة الزنج فى أسفل العراق فى القرن التاسع ، ثم عن ظهور فرق دينية باستمرار . وفى هذا العصر زلزل العالم الإسلامى بحركة ثورية سياسية اقتصادية ثقافية فى نفس الوقت أنتجت الخلافة الفاطمية فى القاهرة . فالحركة الاسماعيلية (أو القرمطية) — كما تسمى هذه الحركة تبعاً لاسم أهم شعبها وأكثرها أهمية — تميزت بآراء حرة عجيبة . إذ وجهت دعوتها إلى مختلف الفرق الإسلامية — من سنة وشيعة — ومختلف الأديان من يهود ونصارى ، وزرادشتية على السواء باسم الحركة الثقافية والعدالة الاجتماعية ، ويصعب البت فى فلسفتها الحقيقية لأن مصادرنا إما سنية فتكون شديدة العداء متحيزة، أو اسماعيلية تنتمى إلى عصر متأخر عند ما طرأ على المبادىء الأولى تعديل واسع . فمثلا نرى أن فخر الدين الرازى وصم الغزالى والشهرستانى والبغدادى بالتعصب وقلة فهمهم لآراء خصومهم . إذ روى عن حديث له مع المسعودى عن الكتب قال : « فقد ذكر المسعودى كثيراً منها إلى أن ذكر كتاب الملل والنحل للشهرستانى . فقلت: نعم، إنه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العلم بزعمه إلا أنه غير معتمد عليه ؛ لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى بالفرق بين الفرق ، من تصانيف الأستاذ أبى منصور البغدادى ، وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين ، فلا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه الصحيح[٢] » ، وقد أدرك الغزالى الخاصة الاجتماعية للمذاهب المنشقة ، وقال فى الكلام عن الباطنية : « فاستبان أن ما ذكروه تلبيس بعيد عن التحقيق وأن العامى المنخدع به فى غاية المعى ، لأنهم يلبسون على العوام » ثم قال أيضاً عنهم : « فهؤلاء من خطر الخطأ مستحقر فى نفسه عند المحصلين من أهل الدين ، وإنما يعظم به الأمر على العوام الغافلين عن أسرار الشرع » . وعند الكلام على الدعاة الباطنيين قال : « وهؤلاء الدعاة تواطئوا على هذا الاختراع ليتوصلوا به إلى استتباع العوام واستباحة أموالهم فيتوصلون به إلى آمالهم »[١]

ومن الواضح على كل حال أن الحركة الاسماعيلية كانت مبنية على نوع من التفكير الحر تعترف بقرابة الأديان جميعاً وتنبذ الشريعة الإسلامية ، وتستند إلى مبدأ من العدل والتسامح والمساواة التامة[٢] ؛ وبطريقة حاذقة من التفسير تعرف بالتأويل أسندت هذه المبادىء بنصوص من القرآن والكتب الدينية الإسلامية وكذا عوملت كتب اليهود والنصارى المقدسة بنفس الطريقة ...

وقد ذكر عبد الله الإسماعيلى فى عرضه للأسس الاجتماعية للاسلام أنه « ما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل وهو الإله الذى يزعمونه وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلاً ، وجعلهم له فى حياته ولذريته بعد وفاته خولا ، واستباح بذلك أموالهم بقوله : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى (الشورى ٢٣) فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة ، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون . وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج[٣] »

روى هذا النص مؤلف سنى توفى سنة ١٠٣٧ ، كمثل من زيغ القرامطة وشك بعض الباحثين فى صحته . لكن النص وإن كان ركيك التعبير ، فإنه لا يوجد فيه غير الخط من شخصية الرسول ، ولا يمكن تأييده بنصوص من الكتب الاسماعيلية القديمة القليلة أو المتأخرة التى لدينا .

« يتبع » عبد العزيز الدورى

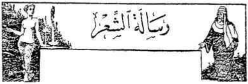
(١) أنظر كتاب Fixhil, The Ougui of bauhingui Medieual, M ets. Islam. J. R. A. S. 1931 p. 339 — 561 وكتاب آخر لنفس المؤلف Jems in Il Social iife of Medurai Islam, 1937

(٢) لاحظ ملحق مناظرات فخر الدين الرازى ص ٢٦٢ ، القاهرة سنة ١٩٣٢

(١) ص ٥ كتاب فضائح الباطنية للغزالى نشره كولد زيهر طبعة ليدن ١٩١٩

(٢) وحتى الوقت الحاضر نجد أهل الحق أو ـ أهل حق ـ وهم بقية إحدى هذه الفرق تسكن فى بعض قرى شمال شرقى إيران تحتفظ بشىء من هذه الصفات فتحتوى إحدى قصائد التعزية عندهم الوعد بأن سيعاقب السلاطين . ويلاحظ البروفسور فينورسكى بصورة خاصة الميزة الشعبية Popular لهذا الدين إذ يقول إنه « معتنق بصورة خاصة من قبل الطبقات الوضيعة من بدو وقرويين ودراويش وسكان المحلات الفقيرة . . الخ) لاحظ ملحق دائرة المعارف الاسلامية (مادة ـ أهل حق ـ)

(٣) ص ٥ البغدادى : الفرق بين الفرق . القاهرة ١٩١٠ ص ٢٨١ و ٢٨٢



بين الجد والفكاهة:

بيوت الشعراء

للأستاذ محمود غنيم

كسوتُ الناسَ خزًّا من ثنائى ... وبتُّ من البِلى أرفو كسائى
فوا لهفى على أبياتِ شعرٍ ... أشيِّدها ولكن فى الهواءِ
أأنشئ كلَّ يوم ألف بيتٍ ... وأسكنُ بعد ذلك بالكراء ؟
فلو طاب المُقام ببيت شعر ... إذن لأقمتُ فى أعلى بناء
إذن لملأتُ شطَّ النيل دورًا ... فلم ترَ فيه شبرًا من فضاء
وآويتُ الأراملَ واليتامى ... ولم أترك شريداً بالعراء
ولم أُوقِعْ على السكّان حجزاً ... ولو عجز الجميع عن الأداء
إذن لملكتُ أحياء بمصرٍ ... تناطح دورُها هامَ السماء
أطوف بهنَّ دارًا بعد دارٍ ... فصيفى ها هنا وهنا شتائى
ولكن لا مُقامَ ببيتِ شعرٍ ... يطيب ، ولو بناه أبو العلاء
ألا مَنْ يشترى أبياتَ شعرى ... بكوخٍ شِيدَ من طِينٍ وماء ؟
فليس الطينُ أكرمَ من فؤادى ... وليس الماء أغلى من دمائى

المنبوذ

للأديب فؤاد بليبل

جائعٌ لفَّهُ الضّنَى بردائِهْ ... أينَ نارُ الجحيمِ من أحشائِهْ
لفظَتْهُ الحياةُ فهو شريدٌ ... يَصِلُ البُؤسُ صُبْحَهُ بمسائِهْ
شاحِبُ الوجهِ ناحِلُ الجسمِ طاوٍ ... تتمشّى الأوصابُ فى أعضائه
وعلى جسمِهِ بقايا رِداءٍ ... تتبدّى العظامُ منْ أجزائه
باهتِ اللونِ مثل بشرتِهِ شكلاً ، يضمُّ الشقاءَ في أنضائه
خِرَقٌ رثّةٌ على جسدٍ با ... لٍ وقدْ زادَ الضنى فى التوائه
شَبَحٌ منطوٍ على كبدٍ حرّ ... ى ونفسٍ قد رُوِّعَتْ بشقائه
غائرُ المقلتينِ أنهكَهُ الجو ... عُ وأذكى الأُوارَ فى أمعائه
فكأنَّ السقامَ ما يرتديه ... وكأنَّ الشقاءَ من أسمائه
وكأنَّ الجحيمَ ما هو فيه ... وكأنَّ الزمانَ من أعدائه
كلّما شامَ بارقاً من رَجاءٍ ... فجعَ اليأسُ قلبَهُ برجائه
ضائعٌ فى الوُجودِ جدُّ شقيٍّ ... يجمعُ البؤسَ كلَّه فى كسائه
ضاربٌ فى النجادِ لا جادَهُ الغيـ ... ـثُ ولا شوكها ارتوى من دمائه
ركبَ العُمْرَ لُجّةً وهْوَ فيها ... زَوْرَقٌ نازحُ الشواطئ تائه
هشَّمَ الموجُ جانبيهِ وألقى ... بشِراعَيْهِ فى غياهبِ مائه
ورَماهُ الإعصارُ في كلِّ قاعٍ ... واحتَواهُ الخِضَمُّ فى أنوائه
نالَ منهُ القنوط كلَّ منالٍ ... وتنحّى أهلُ الوَرَى عن عزائه
هائمٌ فى القفارِ لم يُؤْوِهِ عـ ... ـشٌّ ولا ابتلَّ رملها من بكائه
يتقلّى على الهجير شقيًّا ... أينَ لفحُ الهجيرِ من بُرَحائه
لائذٌ بالفرارِ من دهره الطا ... غى وأينَ المفرُّ من أرزائه
أبَقٌ والشقاءُ جيشٌ لُهامٌ ... زاحِفٌ من أمامِهِ وورائه
كلّما هزَّ للزمانِ قناةً ... حطَّمَتْها الأيامُ فى أحشائه
أنكرَ الناسُ ما يقاسى وقالوا ... مجرمٌ يخدعُ الوري بريائه
وأشاحوا عنه الوُجوهَ احتقارًا ... وتواصَوا بنَبْذِهِ وازدرائه
زَعَمُوهُ عبئاً عليهم ثقيلاً ... وَهُمُ المُثقلون من أعبائه
حَمّلوهُ آثامَهم وأحلّوا ... دَمَهُ لابتئاسِهِ واجتدائه
عَذّبوهُ بالجوعِ ظلماً وراحوا ... يشبعونَ الذئابَ من أشلائه
طَرَدُوهُ عن أن يشاركَ حتى الـ ... ـكلب في ما يَعافُهُ من غذائه
شرّدوهُ فى الأرضِ من خوفهم منـ ... ـه وَجَدَّتْ جُنُودُهم فى اقتفائه
أيَّ شرٍّ يخشونَهُ من شريدٍ ... يتبارى الجميعُ فى إيذائه ؟ !

* * *

ألِهذا الطريدِ أنشأتُمُ السجـ ... ـنَ وأعْدَدْتُمُ القنا للقائه ؟ !
ألِهذا الضعيفِ أشرعتم الرمـ ... ـحَ وخِفتمْ من بطشِهِ واعتدائه؟
ألِهذا الفقيرِ هيّأتُمُ السو ... طَ وحَذَّرتُمُ الورى من عطائه؟

أيها المفترون ممَّ تخافو ... نَ أَمِنْ ذُلِّه وفرط عيائه ؟!
وتردِّيهِ فى التعاسةِ والبُؤ ... سِ وطولِ اكتآبه وبلائه ؟!
أم هُوَ الدهر قد أعزَّ أولى اليُسْـ ... ـرِ وأخنى ظلماً على فقرائه!
سفَّهوا رأيَهُ وربَّ فقيـرٍ ... تُستَمدُّ الآراء من آرائه
وأبى الأغنياء أنْ ينصفوه ... ويحَ هذا الزمان من أغنيائه!
لا تَلومُوه إنْ تمرَّد أو ثا ... رَ وهزَّ الوُجُودَ مِن أرْجائه
أنتمُ سقتموه للإثْمِ سَوْقاً ... فاعذروهُ إن لجَّ فى غُلَوائه
هاجَهُ ظلمُكُمْ فثارَ عليكم ... وأثارَ الكمينَ مِن شحنائه

نشــــيد العمل (*)

للمدارس التجارية والطبقات العاملة

للأستاذ على الجندى

نَحْنُ أبْنَاءُ الْعَمَــلْ ... فى مَيادِينِ الْحَيَاةْ
كلُّنا حُــرٌّ بطَلْ ... تُحْرِزُ التِّبْرَ يَدَاهْ ... يَحْمَدُ النِّيلُ خُطَاهْ
نحنُ أبناء العمــلْ

نحنُ للشَّعْبِ عِمادْ ... نحنُ للنِّيــلِ دِعامْ
نحنُ للنـاسِ رشادْ ... نحنُ لِلمالِ قِوامْ ... نحنُ للعَيْشِ نِظامْ
نحنُ أبناء العمــلْ

نحنُ للسعى خُلقنا كالطيورْ ... والذِى يَسعى ينالْ
لا نُبالى مالقينا كالصُّخورْ ... حَيِّ أحرارَ الرِّجالْ ... حَيِّ أبطالَ النِّضالْ
حَيِّ أبناء العمــلْ

نحنُ رمزٌ للدَّأبْ ... ومِثالٌ للشَّــبابْ
عصرُنا عصرُ الغلَبْ ... من توانى فيهِ خابْ
لا تَرَى فينا الكَسِلْ ... لا تَرَي فينا الوَكِل
نحنُ أبناء العمــلْ

نحنُ لا نرضى الغِنَى ... فى ظِـلالِ المنْصِبِ
فالتمسنا رزقَنــا ... منْ طريق المكسَبِ
وَسَعَيْنا جُهْــدَنا ... واقتدينْا بالنَّــبى
فبلغْنا سُــؤْلنَا ... وَقهرْنا الأجْنَــبى
نحنُ أبناء العمــلْ

مِصرُ هبَّتْ من كَرَاها ... سَــدَّدَ الله خُطاها ... وَرَعى عَرْشَ البلادْ
نَحْنُ فى الخطبِ فِداها ... نحنُ نَرْمى مَنْ رَماها ... نحنُ فُرْسَانُ الجِهادْ
نحنُ أبناء العمــلْ

(*) لحنه الأستاذ محمد عثمان

إيَّاكَ أَعْــــنى ...

للأستاذ محمد كامل حتة

يَا مَنْ جَهِلْتَ حَقِيقَتِى ... فأَفَدْتَنِى بالجهــلِ عِلْمَا!
جُوزِيتَ عَنِّى مِنْ جَهُو ... لٍ زَادَنِى عِلْمًا وَحِلْمَا!
أَنْكَرْتَنِى فعَرَفْتُ نَفْــسِى، يا لمَعْرِفَةِ النفوسْ ...
هِىَ جَنَّــةُ الرُّوحِ الشَّرِ ... يدِ وَبَسْمَةُ القلب العَبُوسْ!
لا بَلْ هى النــارُ التى ... يَشْقَي بها العقلُ السعيدْ!
وَيظلُّ يهفــو كالفَرَا ... شَةِ نَحْوَها يرجُو المزيدْ ...
هــامتْ معَ الآمالِ فى ... وَادِى الهْوَى المسحُورِ نَفْسى
فَضَلَلْتُ عنها، وانثَنَيْـ ... تُ أَخُبُّ فى أذيالِ يَأْسِى!
كم رُحْتُ أنشُــدُها بــكلِّ مِظَنَّةٍ وبكل وادِ ...
حيرانَ أضرِبُ فى فِجَا ... جِ الأرضِ مُضطرِبَ القِيادِ!
كم ذا شَــقِيتُ بِغُرْبَتِى ... فى هذه الدُّنْيا الكَنُودْ ...
فَطَفِقْتُ أندُبُ وحْــدَتِى ... وَزَهِدْتُ فى هذا الوجودْ!
ماذا لَقِيتُ مِنَ الحيا ... ةِ وَصَفْوُها كَدَرٌ مَرِيرْ؟
هِيَ مِحْنَــةُ العقلِ البصــيرِ ونِعمةُ القلبِ الْغَرِيرْ!
لَوْلاكِ — نفسي — ما شَقِيــتُ بما أُعَانِي مِنْ قَلَقْ!
وَلَقَرَّ بين جَوَانِحِي ... قلبٌ يَوَدُّ لَوِ انْطَلَقْ ...
نفسى! عَرَفْتُكَ مُنْــذُ أنــكرنى الجُهُولُ الْمُدَّعِى ...
وَبِهِ اهتــديْتُ إليكِ فى ... هــذا الْمَقَامِ الأَرْفَعِ!
كُفِّى مَلَامَتَــهُ فمَا ... هو بالْمَــلَامَةِ يَجْــدُرُ
ما ضَرَّهَا شَمْسُ الضُّحَى ... ألَّا يَرَاها الأجْهَــرُ؟

الأدب في أسبوع

مولده

سَكن الكون وأصغى ، وتعبّأت كل القوى الأبدية لحشدها ، وعَبّ التيّار الإلهيّ الذى يَمُوج به الكون ، وسمت الملائكة بالبشرى بين خوافق السماء والأرض ، وتهلّلت أجيال النبوّة بأفراح خاتمها الذى أتمّ الله به نعمته على الناس ، وسَرَت في الكائنات أسرار الحياة الجديدة فاهتزّت وربت واستشرفت إلى النور الخالد الذى ينبع من أفق الإنسانية العالى البعيد ، ووسوست رمال الصحراء بتسبيحة الحمد لله ، تستقبل الأقدام التى تطؤها بالنور الذى سيمشى أوّلَ ما يمشى على حَصْبائها، ثم يمشى بأصحابه فى أرجاء الأرض يحييها بعد موت ، ويطهرها بعد دَنَس

سكن الكون وأصغى ، وسكنت نأمةُ الشياطين فى مخارمها ومهاويها وآفاقها ، وخشعت وساوس إبليس بالرُّعب والفزع ، وثبتت فى مساربها جائلاتُ الجِبْتِ والطاغوت ، وتحيّرت فى مستقرّها أباطيلُ الأوثان وأوهام الالوهة المزيفة على الناس

ثم اهتز الكون كله بالفرح ، فتداعت أبنية الأجيال الوثنية الباطلة ، ثم أخذت تتداعى تحت الأشعة النبوية التى نشرت على الدنيا نورها بالحق والعدل والتوحيد والسلام ...

سكن الكون وأصغى ، ثم اهتز بنوره وتطهر ، صلى الله عليه وسلم . والسلام عليك يا رسول الله ، سلاماً من كل قلب ، وفى كل زمن ، والحمد لله الذى أرسلك بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون

أعيادنا

أعياد الأمم هى الأيام التى تستعلن فيها خصائص الشعوب وذخائرها وخلائقها الأدبية والعقلية والنفسية والسياسية . هى الأيام المبتهجة التى تنبض بالحياة وأسبابها فى الأمة ، لتدل على السر الحيوى السارى فى أعصاب الحياة العملية اليومية المتتابعة على نظام من الجد لا يكاد يختلف

واحتفال الشعب بأعياده أمر ضرورى لإعطائه المثل الأعلى وإمداده بالروح التى تدفعه إلى مجده، أو إلى المحافظة عليه . فهو من ناحيتيه يظهر ما فى الشعب من خصائصه ومحامده وعيوبه؛ ويبقى على المثل الأعلى بالتجديد والبهجة والزينة

فأعياد الأجانب الأوربيين مثلاً تكشف عن قوتهم واعتدادهم بأنفسهم ، وتمشقهم لجمال الحياة الدنيا إدماناً وإغراقاً ، وعن جعلهم المجاملة أصلاً أخلاقياً فى أنفسهم وأهليهم ، وعن غرورهم واستهتارهم واستهانتهم بأكثر الفضائل الإنسانية حين تجرى فى دمائهم عربدة الطغيان الإنسانى المتوحش الذى يرتد إلى الغرائز الحيوانية المستأثرة باللذة ، المجردة من الورع والتقوى

وأعيادنا نحن تهتك الحجاب عن ضعفنا وذلتنا ، واستكانتنا لما نشعر به من الضعف والذلة ، وتبين عن ذهول الشعب عن نفسه وعن تاريخه ، وعن مجده ، وتعلقه بِتُرّهات الحياة ، وقلة مبالاته بجهالها ، وانصرافه عن معرفة الأحزان الخالدة فى طبقاته بخلود الفقر والجهل والبلادة

فهل يزدلف إلينا ذلك اليوم الذى تتمثل فيه أعياد الشعب الإسلامى صورة السيطرة والسيادة والقوة ، وتتبدّى عليه أفراح الحياة الراضية المؤمنة المطمئنة ، وتعود إليه الأخوة الإسلامية التى ساوت بين الناس غنيهم وفقيرهم وعالمهم وجاهلهم ، وجعلتهم سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالخلق والتقوى؟ هل يأتى ذلك اليوم السعيد الذى يجعل أعيادنا صورة من مدنية دين الله التى تبدأ بالرحمة والحنان والتعاطف ، وتنتهى بالعمل والجد والصبر والتعاون ؟ يومئذ تكون السيادة العليا للمدنية المستقبلة ، مدنية الحرية التى لا تشتهى أن تفجر ، والعلم الذى لا ينبغى أن يكفر

التعليم

فاز الأسبوع الماضى فى مجلس النواب بإثارة انتباه الناس إلى شأن التعليم وسياسته التى درجت عليها وزارة المعارف من سنين تطاولت ، وقد قدمت اللجنة المالية تقريرها عن ميزانية المعارف ، وتناولت فى هذا التقرير سياسة التعليم وأغراضه ، وعيوبه وما ترجو به له الإصلاح ، وناقش المجلس بعض هذه الآراء ، وعرض حضرات النواب بعض آرائهم وملاحظاتهم .

ونحن - على أننا لم نحضر هذه الجلسة بل قرأنا ما اختصر مما جرى فيها - نظن أن حديث النواب كان يدل دلالة قاطعة على أن وزارة المعارف التى انقضى على قيامها بهذه المهمة ما يربو على قرن من الدهر لم تقرر فيها أصولٌ صحيحةٌ للتعليم ، ولم تجر سياستها على منهج يستمر بها إلى غاية تريدها على تدبير وحياطة

أفلا ترى أن الوزارة لا تزال تسمع من الناس ومن النواب ومن أصحاب الرأى ما يجب عليها للتعليم الدينى فى مدارسها ، وما ينبغى فى مناهج تعليم البنات ، وما تتطلبه أنظمة التعليم الإلزامى ، وهل أدى الغرض منه إلى اليوم أو لم يؤده ؟ وما تفرضه الوطنية من النظر الصادق فى ترقية التعليم الحر حتى يصل إلى الدرجة التى تليق به وبالأمة التى يتولى هو بعض الرعاية على بعض أبنائها ، وغير ذلك من الشؤون الابتدائية فى سياسة التعليم

فهذا عجيب أن تبقى وزارة المعارف إلى هذا اليوم ، ولم تتقرر لها سياسة كاملة عامة تتناول حياة الأمة العلمية والأدبية والخلقية والبدنية بأدق النظر وأحسن الرأى ، فلا ينبغ لها نابغ يسددها إلى هذه الآراء الأولية التى يفرض كل أحد أن الوزارة قد انتهت من إقرارها والسير عليها والتدبير لها بكل الوسائل التى تكفل للشعب تربية أبنائه تربية تامة كاملة مهيأة لتحمل الأعباء الثقلة التى سيحملها جيلهم من بعد هذا الجيل

وقد سارت وزارة المعارف فى السنين الأخيرة على سنة لا يمكن إلا أن تفضى إلى توهين الروابط الثقافية التى تربط الشعب كله بعضه إلى بعض ؛ وذلك كثرة تبديل المناهج وتغييرها عاماً بعد عام لغير ضرورة ملجئة فى أكثر هذا التبديل والتغيير .

ولا بد أن تحزم وزارة المعارف أمرها على خطة واسعة متراحبة ترمى إلى أبعد مدى على أتم حذر ، ليتسنى لها أن تمحو كل أخطاء الماضى التى لعبت فيها الأيدى الاستعمارية والسياسية بكل ما من شأنه أن يسلب الشعب قدرته على التحفز والتوثب والتجمع ، وما ينشئه على الحرية العقلية والنفسية ، التى ترفعه إلى الدرجات السامية التى يجب أن يرقى إليها كل شعب يريد أن يتحرر ويسود ويفرض مدنيته على الأرض التى يعيش عليها

وإذا أرادت وزارة المعارف ذلك الآن ، فإن فى همة وزيرها الذى لا يَمَل ولا يتأخر عن دواعى الوطن ، إنفاذاً لهذه الإرادة .

فوزير المعارف رجل معروف بالجد والإخلاص والمثارة وقوة العزيمة ، فلو اجتمع له كل أصحاب الرأى ممن يجب أن يساهم فى شأن التعليم مساهمة الدرس والكفاح للمستقبل ، لأمكنهم أن ينقذوا وزارة المعارف من البلبلة التى لا زالت تتساقط بها من ذلك العهد القديم المعروف بأغراضه فى تحطيم قوى الشعب تحطيما استعبادياً مستبداً . فنرجو أن يضمّ وزير المعارف إلى رأيه جماعة من أصحاب التدبير السياسى للتعليم غير متقيّد بشىء من الرسوم القديمة — وهو الرجل الحر — فإن القيود هى التى جعلتنا إلى هذا اليوم نسرى فى ظلام دامس من الأهواء التى غلبت على شأن التعليم فيما مضى

تعليم العربية

وبهذه المناسبة أذكرُ أنى قرأتُ فى الأسبوع الماضى أيضاً كلمة عن أسباب ضعف الناشئة فى اللغة العربية ، وأن الكاتب ردّ هذا إلى أسباب من المعلم والكتب وغير ذلك ، وزعمَ أن أكثر كتُبنا لا يصلح لتعليم الناشئة لسانَ أمتهم . وإن يكن فى هذا بعضُ الحقِّ فليس هو كلُّ الحقِّ ، فإن أسبابَ ضعفِ النشءِ فى العربيةِ ليس يُردُّ إلى المعلم والكتاب ، بل مَردُّه إلى المنهج الذى يُقيِّد المعلم بقيود كثيرة ترفع عنه التبعة فى نتيجة التعليم ، ويقيد الكتاب مثلها ، ويُعطى النشء ما لا يَصْلُح عليه لسانٌ ولا يستقيم به تعليم لغة

فلو أنت نظرت لما رأيت شعباً من شعوب الأرض المتعلمة ، يفعَل بلغته ما نفعل نحنُ ، من التجاهل للآثار الأدبية وقلة الاحتفال بتزويد الناشئ بمادّتها التى تحفظها لتكون أبداً على مدّ الذاكرة وفى طاب اللسان . ولو أنت سألتَ أى متعلِّم من أهل الأمم الأخرى أن يُسمِعك من روائع شعر أمته ونثرها وحديث بلغائها لاحتفَلَ لك بالكثير الذى تظنُّ معَه أنه إنما أعدَّ لك الجواب لعلمه أنك قد أعددتَ له السؤال . فلو أنتَ جئت بعدَ ذلك إلى أحد المتثقفين المكثرين المتفيْخين من المتعلمين عندَنا وسألته مثل ذلك لَنحا إليك بَصرَه فأثارَ النَّظرَ فابتسمَ فضَحكَ فاستهزأ بك فولاّك ظهره ففى بعجب من غفلتك وحماقتك وقلّة عقلك

وإن بعضهم ليقول : ليس لنا ما لهم ، أين للطالب المصرى أو العربى ما يغريه بالقراءة كما يغرى شكسبير وملتون وبيرون وشيللى وفلانٌ وفلانٌ من الشعراء والكتاب ؟ بلى أين ؟ وإن يكن هذا كله حقاً فافترضناه كذلك، فليس يكون لنا مثل شكسبير

وأصحابه إلا باستيعاب قديم كتابنا وشعرائنا ، والحرص على آثار محدثيهم ، فإذا كان ذلك أخرج الشعب يوماً أمثال هؤلاء لمن يلينا من أهل أمتنا . وإلا فإننا سائرون إلى ضعف أبداً ما دُمنا نرى أن الطالب لا يطيق أن يستوعب من شعر البحتري إلا قصيدة واحدة ومن المتنبي مثلها ، ثم يكون ذلك آخر عهده وأوله بدراسة الآثار الأدبية العربية

إن الحفظ الأول للآثار الأدبية الرائعة قديمها وحديثها هو الذي يخرج الأديب والكاتب والشاعر . أنظر إلى المنفلوطي والرافعي وشوقي وحافظ والبارودي والزيات وطه حسين ، كل هؤلاء لم يكونوا كذلك إلا لأنهم نشأوا وقد حفظوا القرآن أطفالاً فحملهم ذلك على متابعة حفظ الآثار الأدبية الجليلة ، ثم حفز هذا المحفوظ ما انطووا عليه من الطبيعة الأدبية التي استقرت في أنفسهم وأعصابهم ، فلما استحكموا استحكمت لهم طريقتهم في الأدب والشعر والإنشاء ، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يكونوا اليوم إلا كما نرى من سائر من تخرجهم دور التعليم بالآلاف في كل عام بنقضي من أعوام الدراسة

مشروع

كتب الأخ الأستاذ « محمد خلف الله » كلمة جليلة الغرض تحت هذا العنوان « مشروع » في مجلة الثقافة العدد (٦٨) الماضي ، وخلاصة هذا المشروع : أن تؤلف جماعة من الباحثين يمثلون اللغة والأدب وعلم النفس والاجتماع يكون من أغراضها أن تدرس النواحي المختلفة للاجتماع المصري الحاضر وما يكون فيه من الظواهر المختلفة التي يخشى أن تدرج وتبيد ولم نستفد من الحرص عليها إن كانت نافعة ، أو الاستعانة بها في درء الأمراض الاجتماعية عن الشعب فيما يستقبل إن كانت من السوء بحيث تكون كذلك

وقد عدّ الأستاذ خلف الله بعض الأمثلة فيما يجب أن تتوجه إلى دراسته هذه الجماعة كمخارج الحروف وأصواتها في كل الأقاليم المصرية ، ورد ذلك إلى أصوله الأولى التي انحدر عنها من تاريخ القبائل ، وكذلك اللهجات الكثيرة في الوجه البحري والقبلي مما هو - ولا شك - نتيجة لإقامة بعض العرب في هذه الجهات ، ثم دراسة الأدب الشعبي من قصيد وموال ومثل وفكاهة وسمر ، ودراسة الخلق المصري ، وعيوبه وفضائله ، وما يتعاوره من الغلو والضعف . ويكون ذلك كله إعداداً لمعرفة حقيقة هذا الشعب معرفة صحيحة ، ثم نشر كل ذلك على التتابع في رسائل قد استوفت شروط المنهج العلمي للدراسة الاجتماعية واللسانية والفنية

وكانا نرحب بهذا المشروع الذي نستطيع معه أن نخدم الشعب خدمة عظيمة باستظهار ما يستتر من قوته ، وما يستعلن من ضعفه ، فيكون ذلك أحرى بأن يهدينا إلى إصابة الدواء الذي يحسم مادة الداء التي تلتهم أسباب رقيه سبباً بعد سبب . وهذه الدراسات المفصلة للشعوب على طبيعتها التي تتعامل بها في السوق والحقل والمصنع والمدرسة والبيت ، وهي النجاة لنا من شر كبير قد أوقعنا فيه الاضطراب وقلة الخبرة . ولو علمت أن أكثر الأمم المستعمرة تلجأ إلى هذا الطريق نفسه في دراسة الشعب الذي تريد أن تستبد به ، ليتسنى لها أن تعمل على إضعافه وقتله بتقوية ضعفه وإضعاف قوته دون أن يشعر أو يتألم بل يحسب أنه يسير إلى غايته على تدريج طبيعي - لو علمت ذلك علمت ما نستطيع أن نستفيده من نتائج هذا المشروع الجيد إذا أحكم تنفيذه ، ولم تتغلب على اختيار رجاله محاباة ، ولم تتحكم في هؤلاء الرجال شهوة أو هوى

محمود محمد شاكر

M. Arab. 139

ترانكانو

إن الأسواق الكبرى في الأقاليم الحارة هي حقا أماكن اجتماع غريبة إن كان بالنظر إلى النباتات التي يشاهدها الانسان هناك أو بالنظر إلى الناس أنفسهم فهؤلاء يأتون عادة من الجهات المجاورة بعكس النباتات التي مصدرها المنطقة الحارة جميعها فيوجد الجوز الهندي من الفلبين وأرز الهند وشكلاتو أمريكا وتمر البابايا من جهة الأمازون والكوافا من الكوتاماك والمنغوست من مليزيا .

إن رسما جديدا ممثلا سوق ترانكانو عاصمة مقاطعة صغيرة من دول الاتحاد المليزي يظهر جمعا من سكان البلاد يهرولون بجلبة مختفين من الحر في ثيابهم الطويلة البيضاء .

فمعظمهم من زراعي الأرز أو صيادي السمك وجميعهم يعيشون في ناحية من أكثر النواحي التي انتشر فيها وباء بالملاريا في العالم كله وشغلهم خطر ولكن الخطر لا يأتي من النمور والأفاعي على قدر ما يأتي من حيوان أصغر من ذلك وأشد منها وبالا وهو بعوض أي الملاريا .

فاللجنة الصحية لجمعية الأمم قد أظهرت ما هي البلية الهائلة بلية الملاريا في مدينة كمدينة ترانكانوا فاللجنة التي تهتم بالملاريا تقول بوجوب إعطاء جميع أهل البلاد مقدار أربعين سنتجرام من الكينا يوميا على سبيل الوقاية وهذا شيء تحقيقه غير ممكن فاللجنة وهي خبيرة بكل ذلك تلح بأن يأخذ جميع السكان المصابين بالملاريا جراما واحدا أو جراما وثلاثين سنتجرام من الكينا يوميا مدة خمسة أو سبعة أيام والحاجة القصوى لأن ما يقارب نصف مجموع الداخلين إلى المستشفيات في مدينة ترانكانو مصابون بالملاريا .



تأملات في الفن :

العشرة الطيبة

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

منذ زمن طويل والكتاب يدعون استوديو مصر إلى إخراج العشرة الطيبة للسينما ، وقد كان رجال الاستوديو يترددون دائماً حيال هذه الأوبريت الرائعة ويشفقون من إخراجها بسبب واحد وهو أن قصة العشرة الطيبة تصور الحياة المصرية في حقبة من الزمن لا تشرف المصريين ، وهي تلك الحقبة التي حكمها فيها الأتراك والمماليك معاً ، والتي كان هؤلاء الحكام يعبثون فيها بحقوق الناس عبثاً شديداً سخيفاً ضعف إزاءه المصريون ، واستلانوا له وجعلوا شعارهم معه قولهم : «من تزوج أمي قلت له يا عمي » وقولهم : « إن كانت لك عند الكلب حاجة فقل له يا سيدي » ...

ولقد حاولت أكثر من مرة وفي أكثر من صحيفة أن أنزع من أذهان رجال استوديو مصر هذه الكراهية الخاطئة التي يصبونها على العشرة الطيبة لهذا السبب وحده ، ولعلي ضربت لهم يوماً مثلاً برواية هنري الثامن التي مثلها شارلس لاوتون لإحدى الشركات الإنجليزية ، والتي لم يتورع ذلك الممثل الإنجليزي الكبير حين مثلها أن يصور هنري الثامن الملك الإنجليزي بصورة هي أقرب الصور لما كانت عليه حقيقة هذا الملك ، ولم تكن حقيقة هذا الملك مفخرة من مفاخر بريطانيا العظمى ، ولا مثلاً طيباً لحكامها وملوكها ، وإنما كانت حياته كما روى التاريخ وكما أظهرتها السينما حياة كلها صيد وزواج ، وأكل ، وطلاق ، وفتك بالنساء وبالحيوان وبالتقاليد ، واستخفاف بشريعة النصارى التي لا تبيح انفصال الزوج عن زوجه إلا للسبب الشنيع الواحد الذي لم يحاول هنري الثامن مطلقاً أن يجعله وسيلة إلى التخلص من نسائه لأنه كان يرى نفسه فوق التحقيق والتدقيق واستقصاء الأسباب وإبداء الأعذار . . .

ومع هذه البشاعة كلها ، ومع هذه العتمة والظلمة والسواد فإن الإنجليز لم يكرهوا شارلس لاوتون، لأنه أخرج هنري الثامن على حقيقته، بل إنهم على العكس من ذلك أحبوه وقدروه ، وبدأوا منذ أخرج هذا الفلم يعتبرونه فنانهم الأول في هذا العصر، وهنري الثامن ذات حقيقية فعل بها شارلس لاوتون هذا كله تحت أعين الإنجليز وأسماعهم ، بل إنه استعان على فعله هذا بأموالهم وبكفايات الذين ساعدوه من رجالهم . أما « العشرة الطيبة » ، فليس فيها ذات حقيقية واحدة ممن يعتز بهم التاريخ المصري ، أو ممن ينسبون إليه ويخشى إن هو أظهرهم للناس أن يلصقوا به نقائصهم وعيوبهم ... وإنما هي قصة خيالية تصور كاتبها المرحوم محمد تيمور أن حوادثها جرت في مصر ، وقد كان يستطيع أن يتصورها جرت في الهند ، كما كان يستطيع أن يتصورها جرت في كوكب آخر غير هذه الأرض ، لولا أنه آثر أن تكون حين تنسب إلى مصر أقرب إلى نفوس المصريين ، وأشد إغراء لهم بالإقبال عليها والاستمتاع بها . وقد كانت «العشرة الطيبة» فعلاً من أحجار الأساس الأولى التي وضعت في بناء المسرح المصري

وقد ترامى إلينا أن استوديو مصر بدأ يفكر في هذه الأيام في إخراج العشرة الطيبة ، وأن رجاله بدأو يتخلون عن تلك الفكرة العجيبة التي ظلوا يتشبثون بها زمناً طويلاً والتي حالت بينهم وبين إخراج «العشرة الطيبة» هذا الزمن الطويل، ولا ريب أن استوديو مصر إذا نفذ هذه الفكرة فإنه سيفتح بها فتحاً جديداً في تاريخ أوبريت السينما في مصر ، ففي هذه الرواية مجموعة من الألحان يشهد الموسيقيون المصريون جميعاً قبل النقاد وقبل الجمهور بأنها خلاصة الموسيقى التمثيلية المصرية ، وأول من شهد بهذا هو المرحوم الشيخ سيد درويش الذي وضع موسيقى هذه الأوبريت. فقد سئل رحمه الله يوماً بعد أن أنشأ لنفسه فرقة خاصة أخرج فيها روايتي « البروكة » و « شهرزاد » عن أحب آثاره الفنية إليه فقال إنها العشرة الطيبة ، وكان السائل يحسبه سيقول

عن إحدى هاتين الروايتين اللتين أعدها لنفسه ولفرقته واللتين لم تأخذها منه فرقة من الفرق

وإنني لا أشك في أن سيد درويش رحمه الله كان على حق في تفضيله للعشرة الطيبة على غيرها مما لحن ، فهي أصفى وأنق من كل رواياته ، ونفسه منطلقة في ألحانها كل الانطلاق لا يقيدها قيد ولا يكتفها شرط

ولعل القراء يعرفون أن موسيقى سيد درويش كانت تصيبها أحياناً آفات لم يجد سيد درويش نفسه بداً من أن يسمح لها بأن تصيب فنه ، بل إنه هو الذي كان يبلو فنه بهذه الآفات ، لأن احترافه التلحين للفرق المختلفة هو الذي كان يجبره عليه . وهذه الآفات تظهر بموازنة ألحان سيد درويش للفرق المختلفة بعضها ببعض . فألحان سيد درويش لمنيرة المهدية ، غير ألحانه للريحاني، غير ألحانه « للمكاكشة ... » وذلك يرجع إلى أن سيد درويش كان يتقمص أبطال الغناء والتمثيل حين يلحن لهم ، وكان يتدفق في تلحينه لهم بروح هي أقرب إلى أرواحهم منها إلى روحه هو ، وبأسلوب هو أقرب إلى أساليبهم منه إلى أسلوبه هو ، وليس معنى هذا أن سيد درويش كان يفقد نفسه في هذه الألحان التي كان يعطيها غيره ، وإنما معناه أنه كان يتنكر بصور مختلفة في أثناء تلحينه ... ومن هذه الصور — صور المغنين والممثلين — ما هو خفيف جميل رائع ، ومنها ما هو ثقيل سمج أقتم الظل ... ومع الثقيل السمج الأقتم الظل لم يكن سيد درويش يستطيع أن يسبل عليه من الحسن إلا بمقدار ماتستطيع شركة السكر أن تبعث الحلاوة في ملاحة رشيد ...

وكان سيد درويش رحمه الله يبارك الثقلاء من أبطاله ، ويسبهم ويلعنهم ، وكان يثور على بعضهم ويضربهم لكي يطاوعوه ويسايروه ، ويحملوا أرواحهم على التأثر بروحه ، وأذواقهم على التبسط في الغناء والتمثيل ، وترك الشموذة والتطريب ، ولكنه لم يكن يجني من هذا كله إلا أن يحترق دمه وأن تتهدم أعصابه ، ويظل الثقلاء من أصحاب الفرق وكبار المغنين ... على ما هم عليه من فساد الذوق و « المصلحة » ، فكان المسكين لا يرى بداً في بعض الأحيان من أن يعطيهم موسيقى تروق لهم هم ، وتروق الناس أيضاً ، ولكنه هو كان أول من يعرف أن عنده خير منها وأروع ...

أما حين وضع سيد درويش ألحان « العشرة الطيبة » فقد كان حراً متحرراً من كل قيد ، ومن كل اعتبار خارج على إرادته

ذلك أن نجيب الريحاني كان له في ذلك الوقت فرقتان ، فرقة كان يلعب بها « كشكشيانه » الرشيقة وفرقة أخرى أسلمها لعزيز عيد يخرج بها فناً دسماً . وكانت رواية تيمور هذه أول ما وقع عليه اختيار هذه الفرقة، وكان بديع خيري إذ ذاك لا يزال يشق طريقه إلى مجده الفني الزاهر فلما عهد إليه بوضع أزجال هذه الرواية بثها روحه كلها لم يقتصد ولم يدخر وسعاً في إجادتها والتأنق فيها ، فلما تسلم سيد درويش هذه الأزجال ليلحنها حرا أعطاها هو أيضاً كل نفسه ، لم يقتصد كذلك ولم يدخر وسعاً في إجادتها والتأنق فيها . ولم يزل الريحاني ينفق على « بروفات » هذه الرواية الأشهر الطويلة حتى اكتمل ما أنفقه ألف جنيه ، فضج وراح يزور هذه البروفات ليرى أي شيء فيها يستدعي هذا التريث كله ، وهذه النفقات كلها ... ولم أشعر به الفرقة وهو يتجسس عليها متسمعاً لأحد ألحانها ، ولكنها شعرت به عند ما فرغت من ذلك اللحن وهو يقول موجهاً الحديث إلى عزيز عيد : « لقد كان في عزمي أن أضع اليوم حداً لهذا الإسراف ، ولكني بعد ما سمعت هذا اللحن أراني مضطراً إلى أن أترككم وشأنكم فليس هذا الذي تصنعونه بالشيء العادي »

وقد كان نجيب محقاً ، فالعشرة الطيبة من غير شك معجزة

وهنا قد يسألني سائل : لماذا كانت العشرة الطيبة (درويشية) أصفى من شهرزاد والبروكة ، مع أن هاتين الروايتين الأخيرتين قد وضعهما سيد درويش لنفسه ولفرقته لم يتقيد فيهما هما أيضاً بقيد ، ولم يراع فيهما ذوق أحد غير ذوقه الخاص ؟

وإجابة عن هذا السؤال نقول : إن سيد درويش لحن العشرة الطيبة في أوائل حياته الفنية أو في أواسطها ، بينما لم يلحن شهرزاد والبروكة إلا قبيل وفاته . وقد حدث أن تأثر سيد درويش بعد العشرة الطيبة بالأساليب الغربية في الإلقاء المسرحي ، وقد ظهر هذا التأثر واضحاً جلياً في ألحان رواية البروكة الغربية الحوادث

والأبطال ، كما ظهر هذا التأثر باهتاً غير جلى فى ألحان شهرزاد . وليس هذا التأثر بالروح الغربية مما يعيب هاتين الروايتين فلا نزال تقليد الغربيين فى الفن الشرقى هو مقياس الفلاح ، ولكننى أنا الذى أكره هذا التأثر ، كما أحب أن أجد عند كل فنان مصري روحاً مصرية خالصة ؛ هى من غير شك مهما هانت وتواضعت ، لن تكون إلا أصدق من روحه إذا قلد بها الغربيين وأساليبهم .

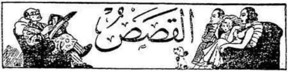
ولكن سيد درويش كان معذوراً فى التفاتاته للموسيقى الغربية وآلاتها وأدواتها وطرائقها وأساليبها ، وتوزيع الأصوات فيها ، فقد شاءت الظروف أن يكون هو الموسيقى المصرى الذى ألقت عليه النهضة المصرية أعباء الفن ليثب به من حالة الركود والإنشاد التى سبقته إلى حالة الحياة والصخب والتدفق والتفرع والشمول التى كانت على أيام سيد، والتى يريد من جاءوا بعد سيد أن تكون على أيامهم .

فلو أن سيد درويش عاش أكثر مما عاش لكان قد استتب له تقرير ما يصلح أخذه من الأساليب الغربية فى الموسيقى واصطناعه فى موسيقانا ، ولكان قد أدرك أنه لا يقل شيئاً عن وجنر وفردى وغير هذين من أعلام الموسيقى الذين كان يتوق دائماً إلى أن يكون فى صفهم ، ولم يكن إلا فى صفهم بمواهبه وصفاء روحه، وإن كان قد أعوزه ما لم يعوزهم من التثقيف الفنى الذي لا يعدو أن يكون حساب الموسيقى وتطريزها لا الموسيقى نفسها ...

ولنعد الآن إلى استوديو مصر لنسأله : هل صحيح ما نشرته بعض المجلات من خبر اعتزامه إخراج العشرة الطيبة ...

أما إذا كان هذا الخبر صحيحاً فإنه خبر يغتبط له الشرق كله لا مصر وحدها . وإن لنا عند صحة هذا الخبر رجاء نتجه به إلى استوديو مصر ورجاله وهى أن يشترك عزيز عيد ونجيب الريحانى معاً فى الفلم على أى نحو وعلى أى وجه ، فلهما من خبرتهما وذكرياتهما — على الأقل — ما نطمئن به على أن تعود الحياة إلى العشرة الطيبة على النحو الذى أراداه لها مع صاحبها ...

والله الموفق . **عزيز أحمد فهمى**



الكتابة على الأرض

[مقتبسة من أسطورة قديمة]

للكاتبة الأسوجية سلمى لاجيرلوف

بقلم الأستاذ صديق شيبوب

كان قد صدر الحكم على المرأة الزانية ، وكانت تعرف أنها سوف تعدم ... إن الذين ألقوا القبض عليها ، متلبسة بجريمتها ، قادوها إلى الهيكل أمام الكهنة ورجال الشريعة، فأصدروا حكمهم عليها وفاقاً لشريعة موسى التي تقضي بإعدام الزانية رجماً بالحجارة ...

كانت هذه الزانية هزيلة الجسم ، وكانت ثيابها ممزقة ووجهها دامياً من أثر الضرب الذى انهال عليها ... وكانت لفرط ذعرها شبه ميتة ، وقد ظلت ساكنة صامتة أمام قضاتها ... فلم تحاول أن تدافع عن نفسها ، ولم تقاوم قبل ذلك الرجال الذين ألقوا القبض عليها وقادوها إلى الهيكل ، أولئك الرجال الذين يدفعون بها الآن إلى المكان المعد لتنفيذ الحكم الصادر عليها ...

على أنها بالرغم من مظاهر الضنك البادية عليها ، كانت روحها مليئة بغضاً، ودمها يفور فى عروقها غضباً ... وكان واضحاً جلياً أنها لا تشعر بوخز ضميرها وتقريعه ... فقد كان زوجها شديد القسوة فى معاملتها ، وكان يضربها ضرباً مبرحاً ، ويحتم عليها أن تشتغل وتكد من غير أن يوجه إليها كلمة مؤاساة طيبة ... لذلك لم تكن تعتقد أنها مدينة له بالأمانة والوفاء ... وكانت نساء الحي يعرفن ما تقاسيه ويعجبن لصبرها على تحمل المضض ، وطاعتها لأوامر زوجها ، وأنها لا تقابل الشر بالشر ...

وشعرت فجأة بالمصير الذى ينتظرها ... فصرخت صرخة مدوية ، وتراجعت إلى الوراء ...

سمعت منذ نعومة أظفارها أحاديث كان الناس يتناقلونها همساً فيقولون : إنه يوجد فى هيكل أورشليم مكان مخيف لا يقصده الناس إلا مرغمين ؛ وكان هذا الموضع ساحة ضيقة فى شكل مربع ذات أرض سوداء تحيط بها جدران عالية مشيدة بحجارة ضخمة ... لم يكن فى تلك الساحة مذبح ، أو أقفاص حمام ، أو مكاتب سيارف ... لم يكن فيها غير كومة كبيرة من أحجار عادية كالتى توجد فى الحقول ، حجارة رمادية اللون بحجم رأس الإنسان ... ولم تكن المرأة قد رأت هذا المكان قبل ذلك ، ولكنها عند ما نظرت من فجوة باب مرتفع ، ورأت الحجارة الرمادية اللون ، فهمت لساعتها أى مكان يحتويها ...

كانت تشعر برعدة وخوف كلما سمعت الناس يتحدثون عن الساحة الخالية إلا من كومة من الحجارة حيث تكفر النساء الزانيات عن جرمهن وفقاً لشريعة موسى ، وقد ظهر لها هذا المكان أشد شؤماً من جهنم ، وها هي ذي تقاد اليوم إليه

ماذا ينفعها الصراخ والمقاومة ؟ لقد دفعها الرجال بعنف فدخلت الباب وبعد ذلك لم يهتموا بأن تظل واقفة ، فتركوها ترتمي على الأرض فجرت

تعريف

نعت أنباء البرق فى يوم ١٦ مارس الماضي الكاتبة الأسوجية الذائعة الصيت « سلمى لاجيرلوف » Selma Lagerlöf بعد أن أربت على الثمانين من عمرها وكانت قد ولدت سنة ١٨٥٩ وابتدأت حياتها العملية بالتعليم ثم زاولت الكتابة والتأليف فلم تلبث أن ذاعت شهرتها وعلا كعبها فى عالم الأدب . وكان أول كتبها الذى لفت إليها الأنظار قصة « ساجادي جوسته بيرلنج » أو كما يسمونها بالفرنسية La légende de Gösta Berling التى ظهرت سنة ١٨٩١ . وقد ساهمت فى حركة التجديد التى ظهرت فى أدب بلادها وهى حركة كانت ترمى إلى انتهاج الطريقة الرومانسية الابداعية فى الأدب الأسوجى وكانت تعالج فى قصصها أساطير قديمة بخيال واسع قوى ونزعة إنسانية محضة .

وقد امتازت بعطفها على المساكين وفهمها العميق للنفس البشرية ، فمزجت فى مؤلفاتها بين هذه العواطف الانسانية ، وذلك الخيال الواسع فجاءت كتبها فى متناول كل واحد على اختلاف العمر والفهم . وهذا ما حمل الكثيرين من النقاد على تشبيهها بالقصصي الدانمركي الكبير « أندرسن » Andersen وجعلها ذات شهرة عالمية ، بل دفعها فى مصاف الكتاب القلائل الذين عرفوا بعبقريتهم الانسانية العالمية الشاملة . وقد فازت بجائزة « نوبل » الادبية سنة ١٩٠٩

وقد شاءت الصدف أن تنعى هذه الكاتبة الكبيرة بينما كنت أطالع آخر ما ترجم إلى الفرنسية من مؤلفاتها وهي مجموعة من الأقاصيص بعنوان « خاتم الصياد » L'anneau du pêcheur فرأيت أن أنقل منها أقصوصة بعنوان «الكتابة على الأرض» L'inscription sur le sol تناولت فيها الكاتبة الكبيرة حكاية الزانية التى جيء بها إلى المسيح وقد حكم عليها بالموت رجماً فأجابهم بكلمته المشهورة : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر » . ثم انحنى إلى الأرض يكتب بأصبعه عليها ... إلى آخر ما روى فى الاصحاح الثامن من إنجيل يوحنا .

نفسها جرا إلى أحد أركان الساحة حيث قبعت في مكانها مذعورة مشدوهة ، وعيناها لا تفارقان كومة الحجارة لأنها مصدر روعها وخوفها

على أنه بالرغم من وجلها ظل البغض والغضب يضطرمان في نفسها ويحولان دون شعورها بحقيقة جرمها . ولو أنها استطاعت الكلام لما حاولت أن تنكر فعلها أو تستدر عطف أحد عليها . كلا ، بل لصاحت في وجه متهميها بأنهم أخطأوا نحوها أكثر منها نحوهم ، وأن إله إسرائيل سوف يعاقبهم إذا انتزعوا منها الحياة التي تنبض فيها

ولكنها في تلك الساعة لم تكن تستطيع التفكير إلا في كومة الحجارة القائمة أمامها ، لذلك لم تدر من أين جاء الرجل الذي وقف فجأة بينها وبين تلك الكومة المشؤومة ، أكان في موضعه قبل وصولها أم هو من أولئك الفضوليين الذين تبعوها إلى فناء الهيكل ؟

لماذا يقف بينها وبين كومة الحجارة ؟ ماذا يريد ؟ أتراه الذي يبدأ بتنفيذ الحكم ؟

كان الرجل مديد القامة يرتدي ثوباً أسود، ويتدثر بدثار أسود. وكان شعره ينحدر على كتفيه مضفراً غدائر متساوية ، وكان وجهه جميلا، ولكنه كان يشيع حول عينيه وفمه تجاعيد خددها الألم، وكانت تفكر في نفسها : «إني أعرف حق المعرفة أني لم أسيء إليك من قبل يا هذا ، فلماذا تحكم علي وتتناني بقضائك ؟ »

لم يخطر ببالها لحظة واحدة أن حضوره لهذا المكان قد يكون لإعانتها والأخذ بيدها. على أنها أحست بتغيير فجائي عند ما رأته. إن وجود هذا الرجل الغريب قد خفف الضيق الذي كان يلازم صدرها وحسن تنفسها الهواء ، فلم يعد هـذا التنفس يشبه حشرجة الموت

أما الرجال الآخرون ، أما أبوها وزوجها وأخوها وجيرانها الذين قادوها إلى هذا المكان والذين كانوا يتأهبون لقتلها فقد تمهلوا إلى حين دون هجومهم الوحشي عليها ، وإذا ببعض الرجال من الذين قضوا النهار في الهيكل يصلون ويجادلون في كتب الدين قد دخلوا فناء الهيكل المظلم وأمر أحدهم بوقف تنفيذ الحكم

فسمعت الزانية همساً من ورائها ، وخيل لها أنها تسمع من يقول : « سوف يمتحنون هذا الرجل، إنه النبي الناصري ، لنغنم هذه الفرصة السانحة ونر هل يجرؤ على معارضة شريعة موسى ! »

وعندئذ تقدم من الغريب ذي الثياب السوداء اثنان من رجال الشريعة ، وكانا شيخين ذوي لحية فضية ، يتدثر كل واحد منهما بدثار صنعت حواشيه من الفرو ، فانحنيا أمامه ، وقال له أحدهما : « يا معلم ، لقد قبض على هذه المرأة متلبسة بجريمة الزنا ، وقد قضت شريعة موسى على أمثالها بالرجم بالحجارة ، أما أنت فماذا تقول ؟ »

رفع الغريب الذي لقبوه بالمعلم أجفانه الثقيلة ونظر إلى محدثيه. ثم أجال نظره في أب المحكوم عليها وزوجها وأخيها ، والرجال الذين رافقوهم إلى الهيكل ، ورجال الشريعة والفريسيين وكل خدمة الهيكل

وبعد أن طاف بنظره محدقاً في وجه كل واحد منهم انحنى على الأرض وأخذ يكتب بأصبعه عليها ، كأنه لم يجد من المناسب أن يرد عليهم . على أنه عند إلحاح الشيخين اللذين تقدما إليه نهض وقال لهم :

« من لم يرتكب منكم خطيئة فليرمها بأول حجر »

فرد عليه الرجال بضحكة ساخرة ، ماذا يريد من قوله هذا ؟ إذا كان الأمر كذلك فلن يلقى مجرم عقابه الحق

تصاعدت من صدر المرأة أنة ضعيفة ، وكانت قبل ذلك قد أحست بالرغم منها بالأمل في أن هذا الغريب سيقول كلمة تنقذها من الموت . أما الآن فقد فهمت أن كل أمل ضائع مفقود ، فأحنت رأسها وقبعت في مكانها مطوية الجسم في انتظار سيل الحجارة الذي سيهوي عليها ، بينما كان الرجال الذين سينفذون الحكم فيها قد أخذوا ينزعون عنهم ما يتدثرون به ويشمرون عن سواعدهم . أما الغريب فظل في مكانه وانحنى من جديد ليكتب شيئاً على الأرض السوداء

كان أول من تقدم من كومة الحجارة أبو المرأة الزانية ، لأنه رب الأسرة وأول من أصيب بعارجريمتها فمن حقه أن يبدأ . فانحنى ليلتقط حجراً ، وفي هذه اللحظة وقع نظره على الكتابة المخطوطة على الأرض وقرأ فيها مكتوباً ، لا بالحروف بل بطريقة واضحة مفهومة ، قصة إثم هائل ارتكبه منذ سنوات خلت ، وهو لا يزال إلى اليوم يحرص على إخفائه

فتراجع الأب مذعوراً مرتاعاً عند رؤيته ذلك وجرى نحو الباب هارباً من غير أن يعنى بأخذ دثاره الذي كان قد انتزعه من قبل

فأسرع ابنه ليقوم مقام والده ويغفر سلوكه الشائن ، وقد ظن أن سبب هذا الهرب ضعف الشيخ وتخاذله أمام ابنته ، ولكنه عند ما انحنى بدوره ليلتقط حجراً ويرمى به أخته التي جلبت عليه العار وقع نظره على ما كتب على الأرض فرأى مخطوطاً ، لا بحروف بل بطريقة واضحة مفهومة ، قصة سرقة دنسة ارتكبها في نزق شبابه ، وهي لو عرفت كان من جرائها فقدانه حقوقه كمواطن إسرائيلي

فذعر وحاول أن يمحو برجليه ما رآه مكتوباً على الأرض ، ولكن الكتابة ظلت جلية تشع بلمعان لا سبيل إلى إطفائه . وعندئذ فر ممعناً في هربه مقصياً في عنف كل من حاول أن يسد عليه طريقه

تحركت المرأة الزانية من الركن الذي قبعت فيه ، وكان شعرها ينحدر على جبينها فأزاحته عنه وأخذت تسوي ثيابها المهلهلة

وعندئذ تقدم زوجها ، وكان قد غاظه ما رآه من سلوك أبيها وأخيها الشائن ، فتأهب ليلتقط حجراً بينما كان كل جسمه يصرخ بالثأر للشرف المهان : لتقتل هذه المرأة التي ألبسته العار . يا لها من لذة يشعر بها في ثأره هذا ، ولكنه بينما كان ينحني نحو الأرض خيل إليه أن بعض كلمات أو إشارات سطرت عليها أخذت تلتهب فجأة ، وكانت هذه الكلمات تزيح الستار عن مؤامرة دبرت ضد الحاكم الروماني ، وكان الرجل مشتركاً فيها ، وهي لو فضح أمرها لكان الشنق العقاب الذي ينتظره

فانتصب واقفاً ، وأوحت له خبرته بالحياة أن يتظاهر بالشفقة فغمغم كلمات معناها أنه لا يريد أن يقيم نفسه حكماً . ثم غادر المكان

ورأى رجلا الشريعة هذا التخاذل فاندهشا وخافا . ثم تقدما من الكومة لا ليلتقطا حجراً بل لينظرا ما خطه المعلم على الأرض بعد أن رأيا ما كان لهذه الكتابة من أثر عظيم

فرأى أحدهما سطراً أنه في أحد الأيام اغتصب جزءاً من حقل جاره إذ نقل الحد الفاصل بينهما ، ورأى الثاني أنه استولى على جزء كبير من أموال قاصر كان وصياً عليها

فانحنى الرجلان عندئذ أمام المعلم متظاهرين بالشفقة والحنان وانصرفا بوقار

وبعد أن خرج الرجلان اللذان كانا بين قضاتها ، انتصبت الزانية على ركبتيها لأن الشجاعة أخذت تعاودها . إنها لم تفهم جلياً ما جرى ، ولكنها أحست بأنها ستنجو ، أو أنها قد نجت بالفعل . فشعرت بلذة الحياة تفيض على نفسها غبطة وسعادة ، وتمشت في جسمها رعشة عجيبة فأحست بميل إلى الرقص

ولكن الخطر لم يكن قد زال تماماً لأن بعض الحاضرين تهافتوا لينفذوا فيها الحكم . على أنهم لم يلبثوا أن تراجعوا الواحد تلو الآخر بعد أن ألقوا نظرة على الأرض ، وكانوا ، بدلاً من أن يلتقطوا الحجارة ، يولون الأدبار وقد علت وجوههم صفرة الوجل وسرت في أجسامهم رعدته ، ثم يمعنون في الهرب ، وقد حولوا أنظارهم وخفضوا رؤوسهم

وعند ما لم يبق في فناء الهيكل أحد انتصبت الزانية واقفة وقد استعادت عيناها لمعانهما كما استردت وجنتاها الشاحبتان لونهما الوردي ... وظلت حيناً جامدة لا تحرك ساكناً . وكان فرحها بالحياة يختلط بلذة رؤيتها أعداءها ينصرفون مذعورين ذليلين . فانتشت بحلاوة الانتقام وأحست رغبة ملحة في الرقص في هذا المكان المرذول وأمام الحجارة التي كانت ستنقض عليها فتسحقها . فاستقامت في وقفة المستعدة للرقص ، وكأنما فتنها الوقف فطفقت تضحك

ونظر إليها المعلم المجهول سائلاً : « أين قضاتك ؟ ألم يحكم عليك أحد ؟ »

فأجابته : « لم يحكم أحد يا سيد »

وبينما كانت ترد عليه كانت تقول في نفسها إنها لا تستطيع كبح جماح سرورها الذي كان يدفع بها إلى الرقص

ولكن المعلم ظل ينظر إليها

كان يرى تلك الغبطة الحيوانية الجامحة التي استولت عليها ، ويلاحظ أنها لا تشعر بأي ندم ، وأن نفسها مليئة بالبغض ، عطشى إلى الانتقام وإلى إشباع الشهوات الجسدية

على أنها فهمت أنه كان يرى ما بنفسها ففارقتها رغبتها في الرقص وأخذت تحس بالخوف من الرجل الذي أنقذ حياتها .

الدَّيْن . . .

عن « سومرست موم »

بقلم الأستاذ مراد الكرداني

خرجت لتبحث عن القوت فرجعت ومعها جائع !

زحف الظلام فلفّ باريس كلها . وغشيتها موجة من البرد القارس . وجثمت على صدر المدينة اللاهية الضاحكة غاشية من همّ ثقيل حبست الناس إلى دورهم ، وحلّقتهم حول مدافئهم . وقد خلت من رُوّادها المسالك والطرقات . وهجعت مدينة النور — على كُرْهها — تحت أطواء ليل بارد مظلم طويل

ولكن « فانى » التى طوت نهارها طاوية لم تكن لتأبه لذلك البرد القاسى ، فإن الجوع قد لوى أمعاءها وخمّص بطنها ، وأشاع فى نفسها الخوف من أن تتضور فى غدها كما تضورت فى يومها ؛ فخرجت — كشكل أمسية — للترابط على رأس طريق تنتظر فيه من يمنحها الخبز الرخيص لقاء أن تهبه جسدها ساعة أو بعض ساعة

فى تلك الليلة القَرّة كان الرجال يمرون بها مراً لا يحفلون بها ؛ لأنها لم تكن تحسن دعوتهم ، ولأن لذع البرد لم يدع فى نفوسهم سوى أن يصلوا إلى مكان دافىء كنين ، فلم تُلفتهم تلك المسهمة المرتجفة التى كانت تقع من أذهانهم موقع الظِّنّة والعجب من هذه الفتاة التى تهزأ بهم وتسخر منهم فى هذا الليل المثلوج !

كانت شابة جميلة تقف على قمة العشرين ، تفور أنوثتها فى كيانها فتنضح حسناً فى وجهها وامتلاء فى جسدها ، وشهوة تتألق فى عينيها الشرهة ونظرتها الآثمة ...

تلك « فانى » التى سطع نجمها فبهر باريس من أقصاها إلى أقصاها ، وشغلها عن كل غانية سواها ، تدور الليلة يهرأها البرد ويلويها الجوع فلا تجد من يشبعها أو يأويها . حتى إذا خَدِرت قدماها من طول ما وقفت ، وسرت فى قدميها وفخذيها رطوبة الأرض المصقوعة همت راجعة وهى تنمنم قائلة :

— لم يعد ثمت أمل فلأرجع إلى بيتى

وكأنما شق عليها أن تنتهى غمرتها هذه النهاية المحزنة المؤلمة ، لأنها حين دارت بجسمها لتأخذ طريقها دارت عيناها تفحص الظلام حولها علّه يتفتق عن رجل ... فلمحت شبحاً يسير مضطرباً متثاقلاً يتلفف فى معطف بال مهلهل ... كان بين الخطوة والخطوة يتأنى ويتمهل كأنه يستوضح الطريق أو يدبر المصير

وحين تبينته ظنته طلبتها التى إليها تهفو فرصدت سبيله ، وطفقت تهمس له فى صوت داعر ترتعش لفته حين ملأ سمعه ... فاستدار لها وقصدها متوجساً منها مسرعة إليه ! !

... لم يكن مخموراً كما حسبت ، ولا كانت خاطئة كما ظن ... إنما كان جائعاً شريداً ... مهزولاً ، ذرع المدينة الغارقة فى الثلج يومين كاملين حتى عصبه الجوع وأزحفه السير والسرى

قالت له فى حنو وإشفاق ، وهى تسنده فى لفة ذراعها وتقبله فى نهزة الظلمة والسبيل خالية :

— مسكين ... مسكين ! لا تحزن ... تعال معى ففى حجرة على أى حال وفيها دفء وقرار ...

... ووصلا معاً ... وحين دلفا إلى الحجرة ، واستشعر دفئها

كانت تراه يشع بنور سماوى فشمرت برهبة شديدة تستولى عليها

هل جاء دور هـذا الرجل لمحاكمتها . سوف يكون حكمه أشد قسوة من الحكم الأول لأن من حقه أن يستنكف الخطيئة التى ارتكبتها

وبينما كانت تتنازع نفسها عوامل الخوف والرهبة سمعته يقول لها :

« وأنا أيضاً لا أدينك . اذهبى بسلام ولا تأثمى بعد اليوم »

عند ما انتهت إلى نفس المرأة الخاطئة هذه الكلمات الحاملة لمعانى الغفران والمحبة تمت المعجزة فى قلبها . ذلك أن شرارة صغيرة هى قبس من الضياء السرمدى اشتعلت فأوقدت شعلة مضطرمة أنارت ظلام القلق والضلال اللذين كابدتهما أياماً وليالى عديدة . وكانت تود فى بعض الأحيان لو تنطفئ هذه الشعلة لأنها كانت تجد أن روحها ليست جديرة بزانية مثلها . ولكن الشعلة لم تنطفئ بل خطت فى قلبها كتابة لا تمحى عن بشاعة الخطيئة وجمال العدل . وقد ظلت متقدة حتى امتلأت بقدسيتها نفس تلك المرأة الضالة

صبرى شبيوب

صاح في جذل وسرور وهو يلقي بنفسه إلى الأرض إلقاء :

— ما أهنأني بهذا المكان ... إنه ولا شك أفضل من الشوارع. نعم إنه أفضل من الشوارع لقد أمضيت دهراً في الشوارع

وفتحت « فاني » خزانتها وعَيْبَتها فيها ، وكانت تحوى كل ما تملك من ملابس وطعام وشراب ! إن كانت الكسر التوافه التي ضربت فيها العفونة تسمى طعاماً ... أو إن كان القليل من النبيذ الرخيص يصلح أن يكون شراباً ...

قدمت له كل ما عندها ، بعد أن عجفت نفسها عنه ، فشبع وروى جهد ما وسعها أن تشبعه وترويه ... وحين أجمأه الطعام(1) شرع يقص عليها قصصه وقد طامنت جوعها واطمأنا معاً ... قال :

« قضى جدي منذ زمن قصير ولم يكن لي سواه وكان مصوراً مغموراً ... وقبيل موته أوصى بي أحد معارفه هنا ، وحملني إليه رسالة مكتوبة ناشده فيها أن يعني بأمري ، ويعلمني حرفة التصوير وكنت أحمل — حين قدمت باريس — نيفاً وثلاثين فرنكاً كانت كل ما أملك من متاع الدنيا ...

« طفقت أبحث عن الرجل فما وقعت له على أثر . إذ كان نقل مسكنه إلى حيث لا يدري أحد من جيرته فلبثت ستة أشهر أنفق مما معي إنفاق الحريص الشحيح حتى نفدت نقودي عن آخرها منذ سبع ليال ! فهمت على وجهي متسولاً في الطرقات ، وفي تلك الأيام التي يجمد فيها الدم وتجن فيها الريح ... آه يا سيدتي ... عند ما لقيتك لم أكن قد طعمت شيئاً منذ ثمان وأربعين ساعة ! »

وكان التعب والدفء قد فعلا فيه فعلهما فلم يقو أن ينهض ليخلع عنه أخلاقه . فنهضت تساعده وتنضوها عنه في رقة وحرص ... ثم احتوته في صدرها في عطف وحنو ، وأخذت تقبله وتدلله وقد شاعت فيها الرحمة وأنساها بؤسه بؤسها . ثم ثم تركته لتخلع ملابسها هي أيضاً . . . ثم صعدا معاً إلى فراشها وكنفته في حضنها كطفل عليل ، وناما — ملء عيونهما — إلى ضحوة النهار

... ... واستدانت ثمن غذاء رخيص في مطعم حقير ، وحين جاء الليل تأذنته أن تغيب عنه بعض الوقت ... وحين عادت أفرغت بين يديه اثني عشر فرنكا قائلة إنها كسبتها وإنها أحسن حظاً من الليالي السالفات، وإنها تدين له بهذا الحظ الوفير، ثم قبلته وتركته كرة أخرى، إذ كانا — لا يزالان — أول الليل

... ... وأوغل الليل ... ثم انتصف ... ثم تهور ولم تعد « فاني » فقلق عليها . ولكن لم تداخله في خفيتها ريبة ... وأسفر الصبح ولم تعد أيضاً ... ولما علا النهار غادر الحجرة . إذ كان عليه أن يعول نفسه ويسود ثانياً فيطرق شوارع باريس المديمة القلب ، وإن كانت ستغنيه تلك الفرنكات القليلة التي تركتها له — تلك التي لم يعرف اسمها — عن التشرد بضعة أيام !

أما هي فكان من تعيسها أن احتجزها رجل الشرطة ، لأنها كانت تسير عبر شارع محظور على مثلها أن تسلكه أو تظهر فيه ... ومن ثم أعدوا لها — جزاء ما اجترأت — مكاناً في سجن البغايا في « سانت لازار »

* * *

ودارت عجلة الزمان خمس عشرة دورة ، تحولت الحال فيها غير الحال ، وتبدل فيها كل شيء . . . ذاقت خلالها « فاني » من صاب الحياة وحلوها ويسرها وعسرها ما تذوقه كل طريدة مثلها ... وهبت نفسها للإثم والخطيئة ... فملأ التيار بها وهبط ومد وجزر ، حتى استقر المطاف بها أخيراً فإذا هي — بعد جهد السنين — غانية باريس الأولى وزهرة مجتمعاتها وحفلاتها وكوكبها الذي إذا ظهر أخذ وبهر ، وإذا غاب شغل وأسر . . . !

كذلك ، وفي وثبة واحدة بلغت « فاني » الأوج وارتفعت إلى الذروة مالاً وجمالاً وشهرة وبُعد صيت . وأثرت تلك الفتاة المعدمة الشريدة التي آوتها الطرق ليالي وأياماً وربتها الحادثات ، والتي عانت الجوع والعري ألواناً وأعواماً ؛ وتدفق في يديها الذهب ، وأقبلت عليها الدنيا ، حتى سار المثل بغناها وبذخها ، واندفعت في نزق وجنون تنتقم من يومها لأمسها ، فأسرفت في اقتناء الجياد والمركبات واستعمال الخدم والندل ، وجنت بالترف البالغ والسرف الطائش حتى طاولت بقصورها قصور السادة والأمراء، وطار ذكرها فعبر فرنسا كلها وجاوزها، فتهاوت تحت قدميها أفئدة الرجال ، واحتولها(1) السادة ، وتحلقها الخاصة ، واحترق في وهجها الشباب النضر من كل صوب وفج ، وذابت في لذعة السحر من عينيها الأخاذتين الأموال الكريمة . والضياع الوساع ، واختفت في أبهاء قصورها وبهرات ملاعبها ومغانيها ثروات السفهاء البله من سادة الحكم ووزراء الحاكم وأمراء المال من كل بلد وقطر !

(1) أجمأه الطعام أسكت جوعه

(1) احتولها : تجمعوا حواليها

وظلت « فانى » فترة من الزمن ملكة الجمال الفاتن والبذخ المريض ، ليس فى باريس وحدها ولكن فى دائرة مركزها باريس ومحيطها عبر المحيط ... تمسك أفئدة الخاصة — بل خاصة الخاصة — بخيوط تجمعها فى يدها . فتقوى من تشاء وترجى من تشاء ، وتتخلى عن من تريد وقت ما تريد . وبلغ بها هوسها أن تألقت فقسمت الحظوظ بين عبادها وفرقتهم ، فمنهم شقى وسعيد !

... وأوفت الفتنة فى هذه « المخلوقة » وبها على الغاية حتى ذل فيها الأعزة الشم من الحافين حولها ، وحتى هلك فى سبيلها من حقت عليه كلمتها . فقضى من أجلها من قضى ، وجن فيها من جن ... ...

* * *

... وكأنما برمت باريس بهذه الداهية الوافدة التى شغلتها برهة من الزمن فعاجلها القدر وهى فى عقدة عزها ، إذ توالت عليها المصائب ودهمتها الحوادث بغتة ومن غير تمهل ، فأخذت تنحدر سريعاً كما ارتفعت سريعاً ... وفعلت تلك الحياة العابثة الصاخبة فعلها فى أعصابها وكيانها ... فأصابتها لوثة جعلت تخبط فيها على غير هدى ... ثم ركبتها الديون ... فاضطربت رأساً لقدم ، وأخذتها العزة فلم تقو أن ترى الدائنين يجترئون عليها فيقتحمون مقاصيرها . ويخادعها — على عينيها — ليستوفوا أموالهم بعدل ما تحوى من كنوز ثمينة وطرائف عجيبة ونفائس غالية ! ! ...

وأسلمها الخبل إلى الجنون ، وتضاءلت شهرتها وانفضت من حولها حاشيتها . وتقلص ظلها الممدود وهوى النجم الذى تضوأ فأفل — من وهج نوره — كل نجم سواه ... واختصرت الدنيا المريضة التى وسعتها ، حتى صارت حجرة ... حجرة بسيطة فى مستشفى المجانين لا تليق أبداً بـ « فانى » العظيمة ! ...

وقرأ الفنان العظيم « فرنسيس جورلاند » خبر ما أصاب « فانى » غانية فرنسا ، فلم يلفته النبأ بدء الأمر ، ولكن الصورة المنشورة أرجعت عقله — حين توضحها — إلى الوراء بعيداً بعيداً .. حتى عثر فى طواياه على ذكرى سحيقة ... ذكرى تلك الليلة ... ... وحين عرف أن « فانى » الحسناء لم تكن سوى تلك الفتاة التى أطعمته وأدفأته وحنت عليه حنو الأم على وليدها والتى ذهبت عنه فلم يرها ولم يسمع بها ، والتى جد فى البحث عنها فلم يجدها حتى أيس منها ، والتى كانت تصحو ذكراها فى زوايا قلبه فيردد شكرها فى أعماقه ويتمنى لو يراها ... حين عرف كل ذلك آسفته هذه النهاية المفجعة لهذه الغانية الطيبة القلب ... ثم عجب لنفسه كيف جهل أن « فانى » التى لهجت بسيرتها كل شفة وشغلت بجمالها كل إنسان لم تكن سوى فتاته التى تركت له اثنى عشر فرنكا ومضت ...

قال يحدث نفسه بعد أن رجع من غياهب الماضى الذى غرق فيه :

— إنه لا يحسن أن تنتهى حياة « فانى » هكذا ، وفاض فؤاده نحوها بحنان غزير . واعتزم أن يعمل من أجلها عملاً ما، ومع أنه يحمد للقدر أن هيأ له أن يراها ليبثها شكره وامتنانه ، وليرد لها جميلها الذى لا يستطيع أن ينساه ، إلا أنه حزن وأسى وود لو كانت لقياها فى ظروف أحسن من هذه

ولم يكن الفنان النابه ثرياً إنما كان يحيا حياة وسطاً قوامها ما كان يربحه من فنه المصور ، فباع كل ما يملك ليستطيع أن يجد لها مكاناً خيراً من الذى هى فيه وجواً أرجى وأنق . وعناية أتم وأكمل حيث تراعى وتعالج ويعنى بحالتها النفسية ، وحيث تقوم على أمرها ممرضة تحنو عليها وترعاها ... وهناك تحسنت صحتها تحسناً ظاهراً شجعه أن يحملها إلى بيته ليخدمها بنفسه . وليدخل على قلبها لوناً من المسرة والبهجة ، سيكون له — بإذن الله — أثر فى تقدم صحتها ، ولكن الطبيب عارضه وأنكر عليه ونصحه قائلاً :

— ستعود بها إلينا ثانياً ... إن لهذا المرض نوبات تعاودها حيناً بعد حين . وقد تقضى عليها إحدى هذه النوبات

فلم يرضخ لنصح الطبيب ، وقال له :

— إنه لا بد أن تعيش معى ، إنها أشبه بأمى . . .

وفى منزله اعتنى بها وخدمها بإخلاص ، وسهر عليها فى حنو وصبر . وكانت الصدمة قد كهلتها فتخاذلت وابيض شعرها ، ولم تستطع أن تعى حقيقة أمرها ، ولا أن تعرف شيئاً عن الرجل الذى يأويها ويقوم على شأنها ، ولم يشأ هو أن يذكرها بنفسه ، بل ذهب إلى أبعد مدى فى النبل وإنكار الذات ، إذ تركها تعتقد



أطفال ولا طفولة

[ملخصة عن « نيوزبورغ زونتنج »]

لا يختلف الطفل فى أمريكا الجنوبية عن الشاب البالغ إلا بأنه أقل سناً وأقصر قامة . ولكنه لا يختلف عنه من الناحية النفسية على الإطلاق . والطفل فى كل مدينة وكل إقليم يشترك فى مظاهر الحياة العامة على اختلافها . ومن المظاهر المألوفة فى « كويتو » أن يرى الطفل البالغ من العمر ست سنوات يطوف الشوارع فى ثيابه الرسمية وعلى قبعته الرقم الذى يشير إلى وظيفته فى الخدمة العامة

فإذا بلغ الطفل الثالثة من عمره أخذ أهله فى تدريبه وإعداده للمزاحمة فى الحياة . ويشاهد الأطفال فى تلك البلاد وهم فى الخامسة من أعمارهم فى الأسواق العامة يبيعون السجائر والفاكهة والمجلات وأنواع الحلوى . ويرى المكاريون والسعاة من بين الأطفال الذين فى الثامنة أو التاسعة من أعمارهم

والطفل فى أمريكا الجنوبية فى السنتين الأوليين من حياته ، يعد لعبة طريفة عند والديه ، يلبسانه ثياب الخز والديباج ويعرضانه فى زهو وعطف على أصدقائهم . فإذا بلغ الثالثة أو الرابعة من سنه بدأ يتبع نسق الحياة الذى اتخذه والداه . فإذا كان من الطبقة الفقيرة كان عليه أن يكسب بعض النقود عند ما يبلغ الخامسة من عمره .

وقد تشاهد فى منتصف الليل كثيراً من البنات اللاتى لم يتجاوزن السابعة من أعمارهن على عرض الطريق يبعن الحلوى والأزهار . وكذلك الغلمان فى هذه السن وهم يحملون أوراق النصيب أو علب (الورنيش). ولا ينقطع هؤلاء الأطفال عن الشارع فى الليل أو النهار ، فلا تعرف فى أى وقت يخرجون وفى أى وقت ينصرفون ؟ !

والطفل فى جنوب أمريكا يعد عضواً عاملاً فى أسرته ، يرتدى زى الكبار وله ما لهم من الحقوق . فالبنت الصغيرة مثلاً تتحلى بالخواتم وتلبس الأقراط وترتدى ثياب الحرير وتضع الطلاء وتتعطر بالروائح الزكية . وتصفف شعرها كما تفعل أمها على حد سواء . وكذلك يتزيا الصبى بزى أبيه فيلبس القبعة الفاخرة ويرتدى الملابس الطويلة ويقتنى الحلى والجواهر

إن جهاد هؤلاء الأطفال فى الحياة العملية ليدعو حقاً إلى الإعجاب . فقد رأيت طفلاً فى العاشرة من عمره يقوم بعمل حارس الليل فى سفينة على نهر « كاتالبا » فى فنزويلا . حيث الملاريا والحمى الصفراء والدسنطاريا والتماسيح، لا يساعده فى هذه العزلة الموحشة إلا امرأة واحدة، وهو بعد مسئول عن صحة الركاب الذين لا يقلون عن مائة شخص، مسئول لذلك عن راحتهم؟ ويقوم بأعمال النُّدُل فى بعض القطارات أطفال فى العاشرة والحادية عشرة من أعمارهم ، ويدير مصلحة تنظيف الشوارع فى مدينة « كويتو » أطفال فى السابعة ويقومون بعملهم على أحسن وجه

نابليون فى منزله

[عن « ذس ويك »]

كان نابليون من ذوى العبقريات الحربية النادرة التى عرفها العالم، وكان من أعظم رجال السياسة والإدارة الذين عرفهم التاريخ. وقد أشرفت شخصيته الجبارة على أوربا ولما يبلغ الخامسة والثلاثين فماذا عسى أن تكون حياته المنزلية ؟

أنها فى رعاية شاب ثرى فُتن بها وأحبها لنفسها حباً حقاً خالصاً موقناً أن هذا الحلم السعيد الذى تعيش فيه مطمئنة وادعة ، والذى قدّم لها خيوطه الحريرية فنسجته هذا النسج البديع اللائم سيسرع بها نحو العافية ...

... ولكنها عُقبى نوبة قاسية من نوبات دائها أسندت رأسها إلى صدره هانئة سعيدة وأسلمتْ نفسها تحت عينيه وبين ذراعيه

وحين أراح على فراشها جثمانها الساخن ذكر ليلة أن طعم ودفئ وبات هانئاً سعيداً ملء حضنها وبين ذراعيها وغمغم يقول :

— هل دفعت الدين يا فانى ؟ ! . . .

مراد الكردانى

كان نابليون يستيقظ من رقاده فى أى ساعة من ساعات الليل ، فيستحم بالماء الساخن ، وكان يجلس فى حوض الماء وعلى رأسه لفافة كالعمامة يتدلى طرفاها على عنقه . وكان يأمر بتدليك صدره بفرجون من الحرير فى كثير من الأحيان

ويقوم خدمه بإلباسه فى الوقت المعتاد . فإذا أراد أن يحلق لحيته ، غمر كل شىء فى وجهه بالصابون إلا منابت الشعر ، ويتناول « الموسى » فى تعسف ، فلا يكاد يمر بها على وجهه ، حتى يملأ خده الناصع بالجروح . وكثيراً ما كان يشرد لبه وهو يقوم بهذا العمل ، فيترك جانباً من وجهه كما هو ، ويحلق الجانب الآخر

ولم تكن أحذيته أنيقة المنظر ، أو جيدة الصنع ، ولكنها كانت دائماً مبطنة بالحرير . أما قبعاته ، فكانت مهدمة الأركان ممزقة من بعض النواحى . إذ أن القبعات الجديدة كانت تحز فى جبهته وتجلب إلى رأسه الصداع . ولم يكن نابليون يلبس الحلى أياً كان نوعها ، ولم يكن يحمل كيساً للنقود أو يضع فى جيوبه شيئاً منها .

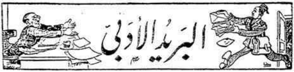
وكان يحب من الذين يقومون بخدمته أن يجيبوه أجوبة سريعة حازمة ، وإن كان قل أن يصغى إلى ما يقولون . فإذا كان معتدل المزاج فلا بأس من أن يفرك لأحدهم أذناً أو يصفعه مداعباً على خده . وكان نابليون سريع الغضب فى أكثر الأحيان ، وكثيراً ما كانت تعتريه نوبات نفسية عنيفة تطغى على أخلاقه ، ولكنه كان سريعاً إلى الهدوء سريعاً إلى الصفح

وكانت تصيبه نوبات عنيفة من سوء الهضم لعدم عنايته بمضغ الطعام ، فيستلقى على الأرض وتأخذ زوجته برأسه فتضمه على صدرها وتدلك بيديها على جبهته وصدره ، وكان يكره تناول العقاقير على اختلاف أنواعها

ومن عادته أن يلعب الورق مع زوجه وأصدقائه عقب الغداء ، إذا لم يكن مصاباً بعسر الهضم

وكان يقرأ الكتاب ، فإذا لم يعجبه ما فيه ألقى به إلى النار . فإذا رأى أحداً من أصدقائه يقرأ فى كتاب لا يوافقه أخذه من يده ودفع به إلى النار

وكان نابليون سريع التأثر بالبرد حتى إنه ليأمر بتدفئة فراشه بالطرق الصناعية فى جميع فصول السنة . وكان مصاباً بعادة قرض الأظافر . ومن المعروف عنه أنه كان يغار على زوجه إلى درجة تشبه الجنون إلا أنه كثيراً ما كان يخضع لها ويسألها العفو وإن كان الخطأ فى جانبها . هذه صورة مصغرة لحياة الرجل الذى هزم إيطاليا وهو فى السادسة والعشرين ، وفتح مصر فى الثامنة والعشرين وكان دكتاتوراً لفرنسا فى الثلاثين وسيداً لأوربا فى الثانية والثلاثين من عمره : نابليون بونابرت



هذا أديب

كان عندنا فى مصر أديب فلسطينى راجح العقل ، وافر الذوق ، اسمه خليل سكاكينى ؛ وكانت بينى وبينه مطارحات تصل أحياناً إلى الصيال ، ولكنه لم يكن يعرف الحقد ولا الضغن

فكان يتلقى هجوى عليه بالصفح الجميل ، ثم يحمله الكرم على المبالغة فى الرعاية لما كان بيننا من صداقة وإخاء

ولا أذكر بالضبط متى انتقل من القاهرة إلى القُدس ، فقد شغلتنى عنه أيامى ؛ ولم يبق لى منه إلا هدايا أدبية من كتبه النفيسة يرسلها إلىّ من حين إلى حين بدون أن يتلقى منى كلمة ثناء ، إلا أن أكون وُفقت إلى الكلام عن بعض مؤلفاته أعوامَ كنت أحرر الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ ، وأنا رجل يعاوده الوفاء فى بعض الأحايين !

تلقيت يوماً رسالة مطبوعة من الأستاذ خليل السكاكينى ، فنظرت فيها فرأيتها مجموعة من خطابات الأشواق كتبها إلى ابنه سَرِىّ وكان اغترب لطلب العلم فى أمريكا

فماذا رأيت ؟

لم أجدها رسائل أب إلى ابنه ، وإنما وجدتها رسائل عاشق إلى معشوق !

رأيت رجلاً يقول لابنه إنه يتذكر وجهه الأصبح وهو فى مثل ضوء الشَّفَق وقد صِيغَ مثالاً للجمال الشائق الفتان .

رأيت رجلاً يقول لابنه إنه يتذكر طُرّته الجميلة المصفوفة على أروع ما تكون الغدائر التى تفتن العيون فيهتاجه التذكر والاشتياق

رأيت رجلاً يتغزل فى ابنه بعبارات صريحة فقلت : هذا أديب يطبع الحب الأبوىّ بطابع الوجدان

وفى هذا المساء — وقد رجعت من سفر لا يخلو من عناء — وجدت رسالة مطبوعة من الأستاذ خليل السكاكينى وعليها صورة امرأة جميلة فقلت : لعلها معشوقة يتحدث عنها هذا الأديب ،

وهل عرفت الدنيا أديباً خلا قلبه من العشق ؟

ومن هذه المعشوقة الغالية ؟

هى حليلة السكاكينى ، هى أمّ سَرى التى خُلِّدت فى أشعار الأستاذ معروف الرصافى

وأقبلتُ على الرسالة فقرأتها فى دقائق مع أنها تبلغ الثمانين من الصفحات

فماذا رأيت ؟

رأيت رجلاً يكرم زوجته فيصف جمالها الفتان بعبارات صريحة فقلت : هذا أديب يضيف ثروة جديدة إلى اللغة العربية ، لأن الحلائل فى لغتنا لم يُبكين إلا قليلاً ، وهنّ أجدر من المعشوقات بالبكاء

ورأيت رجلاً يعتز بنفسه فيصرّح بأن جمال امرأته كان يحتاج إلى فتى فى مثل رجولته ، فقلت : هذا أديب فيه سمة من فتيان قريش

ورأيت رجلاً يبلغ به الحزن على زوجته الغالية إلى التفوه بعبارات هى أفظع ما يكون من الكفر الموبق، فقلت: هذا أديب يقلبه الحزن فيخلع قناع التأدب مع الشرائع

والأديب الحق يستبيح فى عتاب الأقدار ما لا يباح

والأدباء كأهل بدر تغفر لهم جميع الذنوب ، وستعرفون صدق ما أقول يوم نلتقى فى حضرة الواحد الديان ، إن كان من الممكن أن يكون لأعداء الأدب مَعاد ، وإن جاز أن تنصَب لأعداء الأدب موازين يوم يقوم الحساب ، وهم فى شِرعة العقل من المهملات وسوف تعلمون مصايركم يا أعداء الأدب الرفيع !

السكاكينى مبتكر فى بكاء حليلته لأنه أديب حق ، وقد كفر من أجلها كفراً هو صورة من الإيمان الصحيح . وبعض الكفر إيمان ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

والسكاكينى يعجب من أن ينكر الناس البكاء ، ويقول إن مقاومة البكاء إفساد للفطرة ، ويدعو المحزونين إلى تنفيس كروبهم بالنوح والأنين كما كان يصنع القدماء

قال السكاكينى فى بكاء زوجته كل شىء ، والمفارق يقول ما يشاء وما أصعب الفراق !

يلطف الله بك يا خليل ، ويلطف بأبنائك المفجوعين بفراق أمهم الغالية ! !

وكيف خطرتُ في بالك ، يا صديقي ، بعد فراق الأعوام الطوال ؟ أتريد أن آسى لأساك ، وأشجى لشجاك ؟

إن كان ذلك ما أردتَ فقد حزنتُ لحزنك حتى خفتُ أن أصبح عاشقاً لذلك الحسن المكنون الذي أمسى في وديعة التراب

أتريد أن أعرف أنك كنت زوجاً لامرأة جميلة كان يقتتل في سبيلها الخاطبون ؟

هو ذلك ، وإلا فكيف قدمتَ لنا صورها الجذابة في عهودها المختلفات ؟ !

اسمع ، يا خليل ، اسمع ثم اسمع

أنت رفعت المرأة درجات ، حين جعلتها أهلاً للتفجع والتوجع والأنين

وفي النساء أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا وزوجاتنا ، وهنّ جميعاً أهلٌ للعطف والحب . والحمد لله الذي أعزها بوقوفك على قبرها ولم يذلها بوقوفها على قبرك ، على حدّ التعبير الجميل الذي قرأته منذ أعوام بمجلة المرحوم سليم سركيس . . . وسلامٌ عليك من الصديق الحافظ للعهد :

زكي مبارك

حول الأمومة عند العرب

اطلعت على الجزء الأول من مقالة الأستاذ رفعة الحنبلي « الأمومة عند العرب » المنشور في العدد (٣٥٤) فاستوقف نظري قول الكاتب نقلاً عن أحد المؤرخين اليونانيين القدماء وهو «سترابون» إن العرب في الجاهلية لم يكونوا يعرفون الزواج الشرعي الدائم، وإنه كان يفشو بينهم تمدد الأزواج، وإنهم كانوا يتصلون بأمهاتهم

وجواباً على المسألة الأولى أقول : إن الزعم بأن العرب في الجاهلية لم يكونوا يعرفون الزواج الشرعي الدائم هو زعم غير صحيح

فقد روى البخاري في صحيحه وأبو داود في السنن عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت: كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء «أنواع» نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ، ثم ينكحها ؛ ثم ذكرت الأنواع الثلاثة تتمة الأربعة وفيها تمدد من يتصلون بالمرأة ؛ إلى أن قالت : فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم . التاج ج ٢ ص ٣٦٨

ويعلم المطلعون على تاريخ الأمة العربية أن الشعوبية – من أعداء العرب وشانئيهم – هم أول من عمد إلى الطعن في أنساب العرب، ووضعوا أخباراً ولفقوا كتباً في مثالبهم وتحقير شأنهم ، ومن أشهر هؤلاء الشعوبية الهيثم بن عدي ، وكان دعياً ، فألف كتاباً في مثالب العرب أراد به أن يعرّ أهل الشرف تشفياً منهم . قال الألوسي : « ثم نشأ غيلان الشعوبي الوراق – كان زنديقاً ثنوياً – فعمل لطاهر بن الحسين كتاباً خارجاً عن الإسلام بدأ فيه بمثالب بني هاشم ، وذكر مناكحهم وأمهاتهم ، ثم بطون قريش ، ثم سائر العرب ؛ ونسب إليهم كل زور ووضع عليهم كل إفك وبهتان » ص ١٦٠ ج ١

وقال في ص ١٧٣ ج ١ : « إن جميع ما ذكره الشعوبية في شأن مناكح العرب وما أوردوه من باب الطعن في أنسابهم بما كانوا يتعاطونه في الغارات من سبي النساء واسترقاقهم ووطئهم من غير استبراء من طمث ونحو ذلك لا أصل له . وكتب التواريخ صارخة بتبرئتهم مما رماهم به خصومهم وأعداؤهم ، وقد نطق الشعر الجاهلي بما كانوا عليه من الحمية والغيرة ومزيد الاعتناء بأنسابهم وحفظ حريمهم والذب عن أحسابهم وعشائرهم »

وجواباً على المسألة الثانية أقول : ليس صحيحاً أن العرب في الجاهلية كانوا يتصلون بأمهاتهم ، لأن هذه عادة مجوسية ، ولأن الله تعالى نهاهم في القرآن عن محرمات النكاح ولم يذكر أنهم فيما سلف كانوا ينكحون أمهاتهم ، بل خص ذلك بزوجة الأب والجمع بين الأختين . فقال سبحانه : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » وقال عز وجل : « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف » ويدل على هذا ما روى هشام بن عبدالله عن الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة أنه قال : « كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات كلها التي ذكرت في هذه الآية وهي : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » الخ إلا اثنتين إحداهما نكاح امرأة الأب والثانية الجمع بين الأختين . ألا ترى أنه قال : «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، «وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف » ولم يذكر في سائر المحرمات «إلا ما قد سلف» قرطبي ص ١١٩ ج ٥

وبعد فأقول ليس بعيداً أن يكون ذلك المؤرخ الأجنبي الذي نقل عنه الكاتب أن العرب في الجاهلية كانوا يتصلون بأمهاتهم

قد التبس عليه الحال فتوهم أن امرأة الأب - التي كان بعض العرب في الجاهلية يتزوجونها - هي الأم مع أنها غيرها قطعاً ولو فرض أن هناك رجلاً أو نفراً من جهلاء العرب كانوا قد اقترفوا هذا الإثم واتصلوا بأمهاتهم فليس من الصواب جعل هذه النقيصة عامة لكل رجال الأمة العربية « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وأختم كلمتي هذه بتوجيه نظر حضرة الكاتب وغيره ممن يخوض في مثل هذا البحث الدقيق ألا يهملوا الاستدلال بما في المراجع العربية فهي المصدر الذي اقتبس منه المستشرقون كما أنها هي التي عنيت بتفنيد ورد ما افتراه ووضعه الشعوبيون

محمد صبري عابدين

العقيدة الساذجة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد : فقد راعني مقالكم « العقيدة الساذجة » وسرني — شهد الله — هذا الاتجاه منكم لعلاج أمراض المسلمين ، ونواحي النقص فيهم بقلمكم الصناع ، وأسلوبكم الساحر ، لا سيما نواحي العقيدة التي أساء الناس فهمها ، واتجهوا فيها اتجاهاً لا يرضاه الدين إن لم يناقه في أصله وقواعده

وغير خاف أن ذلك الزعيم الهندي الكبير ليس هو الوحيد في هذا الشأن « زخرفة القبور » بل إن من بين أيدينا ، وعن أيماننا ، وعن شمائلنا لمثلاً كثيرة للخروج على عقيدة الإسلام وتعاليمه

وإني لعلى يقين من أنكم ستستعذبون هذا اللون من الجهاد حتى تنهوا الأمة من سباتها العميق

سدد الله خطاكم ، وأمدكم بروح من عنده .

وقد لفت نظري في هذا المقال قولكم : « وإن الإمام الذي كان يطوي الأيام ليطعم — على حب الله — المسكين ، واليتيم ، والأسير لا يرضى هذا الإحسان الميت » تشيرون بذلك إلى معنى قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » التي رووا فيها قصة صوم علي كرم الله وجهه ، وبنيه ، وزوجه ، وجاريته . وهذه القصة موضوعة لا أصل لها ولا ينبغي أن يحمل كلام الله تعالى على قصة هذا شأنها ، وإن أقل تأمل في هذه القصة يدل على أنها مصطنعة .

محمود محمد سويلم
واعظ سمالوط

مجمع فؤاد الأول للغة العربية في رأي لجنة المالية بمجلس النواب

ترى اللجنة أن الدرجة الثقافية التي وصلت إليها مصر الآن تجعلنا نشعر بالفراغ الكبير وبالحاجة الكبرى لوجود قاموس عربي جامع منسق على أحدث الطرق وأسهلها . كما أن مصر والشرق العربي كله يطمعان في تحقيق أملها في وجود دائرة للمعارف عربية ، تستجمع ثمرة إنتاج العقل الإنساني في مختلف العلوم والفنون والمعارف ، أسوة بدوائر المعارف الكبرى الموجودة الآن بكل أمة وبكل لغة إلا اللغة العربية ، وهي الوحيدة بين اللغات الحية المحرومة من دائرة معارف للآن

لذا تأمل اللجنة أن تتوجه وزارة المعارف بخطوات جدية حاسمة في سبيل تحقيق هذا الأمل العزيز

وترى اللجنة أن مجمع اللغة العربية ، على ما أفاد به في حدوده الضيقة ومباحثه المحدودة ، لم يشبع في كثير ولا قليل هذه الأطماع الثقافية الكبيرة . ولعل الوزارة على ضوء رغبة اللجنة السابق ذكرها ، تسرع بالعمل على إعادة النظر في تكوين هذا المجمع ، من حيث تنوع معارف أعضائه والزيادة في اختصاصه ، حتى يكون الأداة الحية المرجوة لتحقيق وجود دائرة المعارف والقاموس ، وغيره من البحوث الأدبية واللغوية والعلمية التي يفتقر لها جماعات مثقفون في العالم كله

الفؤاديات

مجموعة من الشعر الوجداني الرقيق ، نظمها المرحوم « فؤاد بك محمد » ؛ ثم نشرها بعد موته ابن عمه الأديب عبد القادر يوسف تمجيداً لذكراه وتخليداً لفنه ؛ ثم تفضل فأهدى إلى (الرسالة) مائة نسخة منها لتوزعها هدية على من شاء من قرائها تحقيقاً للغرض الذي طبعت من أجله ، وهو الإشادة بفضل الفقيد الشاب والإفادة من نشر أدبه الرفيع

الشيخ عبد الرحمن قراعة كأديب

رأى الأستاذ « محمود علي قراعة » من الوفاء للأدب ، والإخلاص لعمه المغفور له الشيخ « عبد الرحمن قراعة » مفتي الديار المصرية سابقاً أن يتحدث عنه كشاعر وناثر ليهيئ أذهان تلاميذه ، وأصدقائه إلى إدراك منزلته العالية في الأدب والعلم فينشروا ديوانه ويظهروا فضله . فتكلم عنه كصديق ومحسن ومتدين وفقيه ومعاشر وحكيم ، كلام العارف البصير ؛ ثم نشر ذلك في مجموعة وأهدى إلى (الرسالة) منها مائة نسخة لتوزعها على من شاء من قرائها ، فله الحمد على ما هدى ، والشكر على ما أهدى .

رسالة النقد

ليالى الملاح التائه

ديوان الأستاذ على محمود طه
للأديب عبد العليم عيسى

الشعر كالحياة من حيث مظهره ومصدره ؛ فهو من حيث المظهر متفاوت التقدير عديد الألوان ، ومن حيث المصدر واحد لا يتجزأ ولا يقاس ولا يتنوع ...

فالحياة فى الثعلب هى بعينها الحياة فى الأسد ؛ ونحن لا نعظم الحياة فى الأسد لأنها أشرف وأجمل من الحياة التى تسير الثعلب ، ولكن لأنها قد اتخذت لها فى الأسد مظهراً واسعاً مكتملاً عريضاً أوسع وأكمل وأعرض من المظهر الذى اتخذته فى الثعلب [(١)] ...

على هذا القياس الحق ، ترانا نفضل هذا الشاعر على ذاك الشاعر ، وترانا نستحسن هذا الشعر ولا نستحسن ذاك ، ونحن فى هذا التفضيل والاستحسان لم نرد إلا أن المظهر الذى ظهر فيه شعر الأول أحسن وأتم وأوسع من المظهر الذى ظهر فيه شعر الثانى ؛ أما شعرهما من حيث القيمة فهو واحد لا تفاوت فيه ...

من بين شعرائنا الذين نقدرهم ونستحسن شعرهم ، شاعر رقيق رشيق هو الأستاذ على محمود طه فهو شاعر يسقى قلمه من ينابيع قلبه الجياش بالعواطف ، وروحه الهائجة السبوح . وهو شاعر عانقت روحه روح الكون الجميل ، فجاءت أشعاره واسعة متفتحة ناعمة ، تسمع فيها دقات أنباض الحياة ، وتتنسم منها نسمات الجمال والخلود ...

قرأت « لياليه » فشعرت بلذة روحية عجيبة ، وأحسست بانفعالات تهزنى وتنعشنى ، وتوقظ نفسى وترهف حسى ، وتفتح أمامى آفاقاً من النور والجمال والبهاء ...

وهل أنا أطلب من الشاعر غير هذا ؟ ... كفى بالشاعر أن ينقلنى من عالمى المادى الحقير ، إلى عالم سماوى نضير ، تحير فيه أطياف الحسن والسحر والفتون ، فأنسى فيه — ولو قليلاً من الزمن — رغبات الأرض وشهوات ابن التراب !! وأنت لو ذهبت تعد شعراءنا جميعاً علك تجد فيهم من يسمو بك إلى عاله ، ويشعرك بالحياة المتدفقة الفائرة مثل هذا الشاعر ، ما وجدت — للأسف — غير شاعرين أو ثلاثة على الرغم من وفرتهم وتبجحهم وجعجعتهم !

إن من بين شعرائنا من هم إذا كلفوا بشيء آخر كلفهم بالشعر ، لجاءوا بالعجب المجاب ولب اللباب ؛ ولكنك إذا ذهبت تصارحهم بهذا رأيتهم هاجوا وماجوا ، كأنك تريد أن تسلبهم أرواحهم ! ومن العجيب أنك لا تلبث أن تسمع منهم من يقول فى غطرسة وكبرياء : « أنا المجلى وغيرى مابع تال » ...

وآخر يقول :

قد صرت وحدك فى الملو ك وصرت فى الشعراء وحدى

وثالث يقول :

لولا غنائى وشعرى لمات روح الوجود

وهكذا وهكذا تسمع ما يؤلم قلبك ... ويشجى روحك !

إذن يجب علينا أن نفرح بظهور الشاعر الحق فرحنا بظهور الوليد الجديد ، ويجب علينا أن نحبه ونقدره ونجله ؛ وما حبنا وتقديرنا وإجلالنا ، إلا الحب وتقدير وإجلال للحق والخير والجمال وهى القيم المنشودة التى تسمى إليها البشرية وتبحث عنها فى جميع أطوارها ومراحلها . وشاعرنا المحظوظ « على طه » هبة سماوية أطلعتنا على آفاق جديدة فيها جمال وخير وفيها أحلام وآمال ...

قلت إن شاعرنا محظوظ ، وأنا أقصد بهذا أنه يحيا حياة شعرية مليئة بالأفراح واللذات ، مترعة بالأحلام والمغامرات . فليس فيها آلام ولا أحزان ، وليس فيها أهوال ولا شكوك ، ولا تردد ولا حيرة ... وأنت لو فتشت فى ديوانه كله ما عثرت على بيت واحد يشعرك أن هذا الشاعر مرت عليه أوقات فيها تنغيص وفيها ألم ، ولكنك تمر على أبيات كثيرة فيها اللذة السامية ، وفيها النشوة السارية ، وفيها الفرح الشامل ...

هو اليوم فى مدينة « فينيسيا » عروس الأدرياتيك حيث الجمال والحسن المشاع ، وحيث الجنادل المزدانة بالمصابيح الملونة والضفائر الوردية . فلا يلبث أن يوحى إليه هذا الجو الفاتن أنشودة « الجندول » الموسيقية الرائعة الرقيقة الخالدة ...

وهو اليوم فى « بحيرة كومو » التى جذبت إليها كثيراً من

(١) قرأت كلاما قديما للأستاذ ميخائيل نعيمة فيه معنى تلك الجملة ...

الشعراء فألهمتهم أرق أشعارهم وأعذب أغانيهم ؛ فلا يلبث أن تلهمه أنشودة بارعة ، ويهديها إلى صديقة أمريكية كانت ترافقه

وهو اليوم في مدينة « زيوريخ » على شاطئ بحيرتها ، حيث الاحتفال بعيد سويسرا الوطني الأكبر ، بين المواكب الصاخبة المرحة ، وأنوار المشاعل ، والأسهم النارية ، وأضواء معرضها العظيم ؛ فتوحي إليه تلك الفاتن الساحرة ... أنشودته الساحرة « تابيس الجديدة »

وهو اليوم على ضفاف « نهر الرين » ذلك النهر الذي يتفرد بجنات أعنابه ، وأشجاره الباسقة ، وقصوره التاريخية ؛ فيوحي إليه هذا الجو الرائع الجميل قصيدة « خمرة نهر الرين » ثم يهديها إلى صديقة سويسرية التقى بها هناك ...

وهكذا وهكذا ترى شاعرنا سارحاً متنقلاً في أمكنة الفتون والجمال ، وهو في كل مكان سعيد محظوظ مغامر . له فيه محبوبة سعيدة محظوظة مغامرة ؛ فجاءت أشعاره لها طابع خاص تمتاز به من بين سائر الأشعار ...

أكبر الظن أن شاعرنا ليس عاشقاً متيماً ولا غزلاً متبالكا فهو يوافق « دانزيو » الشاعر الإيطالي العظيم في قوله : « ما معنى أن يخلص الشاعر لامرأة واحدة ، وهل في وسع الشاعر أن يجمع الجمال كله في وجه واحد أو في منظر واحد ؟ لا بد لخيال الشاعر من أفق لا نهائي دائم التجدد دائم التحول دائم الحركة »

ولقد أجهدت نفسي في أن أعرف لشاعرنا من شعره محبوبة واحدة تشقيه وتسعده وتهجره وتصله حتى يشعر في حبه بالحرمان والسعادة فما وصلت إلى ما أردت أن أعرفه ... وقد يكون هذا « في عقيدتي » هو السر في أن شعر شاعرنا غنائي فطري ، له جرس ورنين في مفرداته وتراكيبه ، تشيع فيه المسرة والبهجة وتغمره البشاشة والطلاقة ...

يعجبني من شاعرنا أنه صريح صادق ، يعبر عن إحساسه وشعوره وحياته بلا تدجيل أو مداراة ؛ فأنت لا تكاد ترى شاعراً من شعرائنا المعاصرين من يصرح فيقول :

ملأت بتفاحها راحتي   وبت لكرمتها عاصرا

أو يقول في التي « علمته كيف يحب وكيف يكره » :

إذا فتح الباب تحت الظلام   فكيف ارتماؤك في صدرها ؟
وكيف طوى خصرها ساعداك   ومرت يداك على شعرها
وما هذه ؟ رعشة في يديك   أم الكأس ترجف من ذكرها
لقد دنس الجسد الآدمي   حياة حرصت على طهرها
بكى الفن فيك على شاعر   تسائله الروح عن ثأرها
نزلت بها وهدة كم خبا   شعاع وغيب في قبرها

كذلك لا ترى معاصراً يقول مثل قوله يحث صديقته في « بحيرة كومو » على أن تنفي الحذر عنها وأن تعذره إن طغت روحه ، أو ثار جسمه :

ما تسرين ؟ أفصحي   إن في عينيك الخبر
الغريبان ههنا   ليس يجديهما الحذر
نحن روحان عاصفان   وجسمان من سقر
فاعذري الروح إن طغى   واعذري الجسم إن ثار

أو مثل قوله في « تابيس الجديدة » :

ألأنا الغريب هنا وملء يدي   أعطاف هذا الأغيد المرح
خفقت على وجهي غدائرها   فجذبتها بذراع مجترح
عرضت بفاكهة محرمة   وعرضت لم أنطق ولم أبح
يا رب صنعك كله فتن   كيف الفرار، وكيف مطرحي

هذا شعر رائع جميل ، له وقع في النفس ، ونشوة في القلب وما روعته وجماله إلا من صدق تعبيره ، وصراحة أدائه ، ثم من حيويته واتساعه وغليانه ...

كذلك يعجبني من شاعرنا الرقيق أنه شاعر مصري صميم — على الرغم مما يعيبونه به من أنه شاعر الطبيعة الغربية — فهو لا ينسى بلاده حتى في تلك الأوقات الجميلة التي يقضيها في هذه الأجواء السحرية الناضرة . بل إنه ليكون غارقاً في لذته وبهجته وسكرته ، ثم يهزه الحنين لنيله الجليل ، فيمسك قيثارته ويغني في فخر ومباهاة :

قلت : والنشوة تسري في لساني   هاجت الذكرى فأين الهرمان
أين وادي السحر صداح المغاني   أين ماء النيل أين الضفتان

* * *

آه لو كنت معي نختال عبره   بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروي الموج في أرخم نبره   حلم ليل من ليالي كيلوبتره

وهناك في « بحيرة كومو » - حيث الجمال والسحر - يهز الشاعر حبه لوطنه ، فينطلق قائلا ، وهو جالس بين كؤوسه وغادته ، غارق في نعيمه وحظه وصفائه :

أين وادى النخيل أم قاهرياته النضر ؟

إن مما يزيدنى إعجاباً بهذا الشاعر أنه صادق فى شعره . وفىّ لفنه ، وأنه ذو شخصية مستقلة لا تندغم فى شخصية أخرى ؛ وأن لشاعريته وجهاً يميزها عن كل شاعرية ، ولألحانه رنة تعرف بها من بين سائر الألحان ، وفى كل ما ينظمه نكهة تختلف عن كل نكهة ...

لكم وددت لو كان بإمكانى أن أتخطى بالقارئ خطوة خطوة مع شاعرية صاحب « ليالى الملاح التائه » فهى فى تجوالها قد سلكت شعباً كثيرة ، وطرقت أبواباً عديدة ، ومن كل سياحة ساحتها قد عادت بآثار طريفة وتذكارات ثمينة . والديوان حافل بمثل هذه الآثار والتذكارات التى تفسح مداه وتفرج صدر قارئه ...

وأخيراً ... لقد انتهيت بدون أن أنقد شاعرنا الملهم ، ويعلم الله أننى كنت أود أن أعثر على أغلوطة أو سقطة ؛ ولكنى عبثاً حاولت . غير أنه يسرنى أن أطلع شاعرنا على هنات طفيفة ما إخالها شيئاً ، فمثلاً قول الشاعر في أغنية « الجندول » :

قلت والنشوة تسرى فى لسانى هاجت الذكرى فأين الهرمان

كان الأحسن من ذلك أن يقول « فى كيانى » لأنى لا أتصور ولا يتصور أحد مى تلك النشوة التى تسرى فى اللسان . وفى الأغنية نفسها اضطراب فى صورها ، فليس فيها وحدة ولا اتساق . ولقد رزقنى الله حلاوة الصوت . فكنت إذا غنيتها على عودى وأنا منتقل على خيالى فى الجو الذى نظمت فيه شعرت باصطدام وحواجز تقفنى عن متابعة طربى خصوصاً فى مقطعها الأول . وفى الأغنية مقطع رائع وهو :

آه لو كنت معى نختال عبره بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروى الموج فى أرخم نبره حلم ليل من ليالى كيلوبتره

وأنا أذكر أنى قرأت هذا المعنى الجميل البارع الذى يعد أحسن ما فى الأغنية مترجماً عن الإنجليزية . فهم يذكرون أن الشعراء الثلاثة كيتس وشلى وليهند اتفقوا على أن ينظم كل واحد منهم قصيدة فى النيل فكان مما قاله ليهند هذا المعنى الجميل . وما كنت لأشير إلى هذا لولا أن الأدباء يرفعون هذا المعنى إلى السماء . فأردت أن أبين أصله ... ويقول الشاعر « فى بحيرة كومو » :

ثمر ناضج الجنى كيف لا نقطف الثمر

وأنا أفهم أن الثمر هو الجنى

ويقول الشاعر فى « مصرع الربان » :

وغاب كل مشيدٍ غير قبعة ذكرى من الشرف العالى وتذكار

والذكرى والتذكار معناهما واحد

ويقول الشاعر فى « مهرجان الزفاف » يريد السيوف :

أو ما لها الماضى فجن حديدها حتى تكاد بغير كف تمشق

والمتنبي يقول : « حتى تكاد بغير كف تضرب » وهو طبعاً أحسن من الأول . فكان حقه أن يأتى بالمعنى كاملاً

وهذه طبعاً هنات طفيفة لا تغض من قيمة شاعرنا العزيز . وكفاه رفعة وسمواً أن تكون هذه مآخذنا فى وقت أصبحت فيه الدواوين الشعرية مهزلة وسخفاً ! ...

عبد العليم عيسى

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :

السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و ٧٠ قرشا كل من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فى مجلدين .

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين)